الخديوي
THE KHEDIVE
1952 - 2018
رواية
مُحمَد أمِير
دار اكتب
ساحر الكتب

الخديوي

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا
sa7eralkutub.com

الخديوي

محمد أمير

الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠١٨م

غلاف: أحمد فرج

تدقيق لغوي: خالد رجب عواد

رقم الإيداع: ٣١٣١ /٢٠١٧

I.S.B.N: ٩٧٨– ٩٧٧– ٤٨٨–٥٥٦ –٣

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونياً نسخاً أو تسجيلاً أو تخزيناً، دون إذن خطي من الدار

دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان: ١٢ ش عبد الهادي الطحان، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة، مصر

هاتف: ٠١١١١٩٤٧٩٥٧

بريد إلكتروني: daroktobl@yahoo.com

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.

الخديوي

رواية

محمد أمير

دار اكتب للنشر والتوزيع

١

المحروسة ٢٣ يوليو ٢٠١٦ – من داخل القصر الملكي

نسر مصر ارتفعْ واعلُ طول الزمن

شعب مصر اجتمع حول جيش الوطن

كلنا كلنا، حارس للحمى

كلنا كلنا، باذل للدمى

للأمام يا حماة العلم

للأمام واصعدوا للقمم

شعب هذا الوطن للعلا جند

شعب هذا الوطن كلهم سيد

* * *

على أنغام " فيردي " الإيطالي، تعالت أنغام المنشدين من قوات الحرس الملكي، ينشدون الكلمات الحماسية التي سارت جزءاً من تراث المملكة المصرية، وإثرائها، تلك الكلمات التي

تغنّت بها القوات المسلّحة لأول مرة عند افتتاح قناة السويس لأول مرة عام ١٨٦٩م، بحضور السادة والبشاوات وزعماء الدول من جميع أنحاء العالم، وبحضور صاحب الجلالة رَحِمَ اللّه روحه الكريمة، الأب الخديو إسماعيل، فكان تكرار صداها على مسامح الحاضرين ينشئ حالة من النشوة والانتصار لدى الجمع الغفير، تتصدر موسيقاها الإيطالية الأصل من بين مكبّرات الصوت عالية التقنية المنتشرة بين أرجاء السلملك الملكي، تصاحبها أضواء خافتة تشي للناظرين أنها حفل لليلة رأس السنة، ولكنها لم تكن كذلك.

كان الكل يحتضن، يملأ كأسه في حماسةٍ، الكل يرتدي الأقنعة التنكّرية، الكل ينتظر الموسيقى الكلاسيكية ليبدأ الرقص، حيث كل "باشا" أو "بك" يصطحب صديقته وهو يتنكّر في زيٍ عسكري قديم، يحمل في يده اليُمنى مُجسّماً بلاستيكيًا لبندقية قديمة، وفي يدِه اليسرى يحمل كأس النبيذ الأحمر المعتّق جيداً، مرتفع الثمن هو، ولكنهم ضيوف جلالة الملك بنفسه، فعن أي أسعارٍ تتحدثون؟

الفرقة الموسيقية تعزف ألحان فيردي الوطنية بدقّة أوبرالية عالية في بهو القصر، على سلالم الطابق العلوي يتراصون كقطع البازل، يرتدون البزّات السوداء، ولا ينظرون إلى الحاضرين أبداً.

كل عازّف يعرف دوره جيداً، عازف الكمان الذي لا يخطئ أبداً فهو يعرف عواقب الخطأ في حفلة كهذه.

عازفة التشيلو الأنيقة، الأنيقة جدّا حتى تكاد ترى طيات جسدها الأبيض المتراقص على الأضواء الخفيفة كنسمة هواء في نهار صيف حارٍّ، حتى إن بعض الباشاوات قد شهقوا عندما رأوها، بل إنهم قد أخرجوا هواتفهم الخلوية الحديثة يصورونها في انبهار غير مصدّقين موهبتها الفذّة، كانت هي تتفحص السجاد الأحمر تحت قدمها بتركيز مبالغ فيه، فليس مصرّحًا لها أن تنظر في أعينهم وإلا حُبست، أو طُردت خارج الحفل، إنها القواعد، وقد حفظتها جيداً عن ظهر قلبٍ، الفرقة كلها قد حفظتها.

الخدم أيضًا، حتى في الظلام لا يجرؤون على النظر إلى المدعوين، يقدمون الشراب والملذات، وأعينهم لا تفارق الأرض، ولا يحق لهم أن يبلغوها، الكل يعرف مصير من يحاول النظر إليهم، شأنها شأن الخيانة العسكرية.

تعالت الأضواء التي قام على ترتيبها شرذمة من الباشمهندسين المختصين بالكهرباء وخلافه، كانت الأضواء متراقصة تتفاعل مع قوة الموسيقا أو ضعفها، أجواء ساحرة كالتي تراها في أوروبا، ولكن

بأسلوب شرقي بحت، التخت الموسيقي كان غربيًا، ولكن تتوسطه بعض الآلات العربية كالقانون والناي وغيرهم، يمزجون الموسيقا بأصوات المطربين التي تتصاعد بشكل عمودي لتشعرك بأن روحك تصعد مع موجاتها.

يقولون إن الموسيقا غذاء الروح، وقد صدقوا، إن ذرات جسدك تعلو وتهبط مع الموسيقا، وتتأثر بها حتى وإن رفضتَ أنت ذلك، لهذا تُحرّمها الأديان، لهذا عرف الأنبياء أن الموسيقي قد تلهيك عن ذكر إلهك، لهذا حرَّموها، لسحرها.

هبطت الأضواء قليلًا ليتقدّم بعض الحراس ذوو الملابس الملكية الحمراء، حراس ذوو وجوهٍ سمارٍ، شديدو الملامح، من السودان بالطبع، يرفعون أسلحتهم الآلية بيد، وباليد الأخرى كل منهم يحمل شعلة نارية يقفون في صفّين بتناسق تامٍّ.

كان عددهم أربعين عسكريًا، لا ينبسون ببنت شفة، يتحركون حركات مدرّبة بعناية، ومن الواضح أنهم عانوا شهورًا في التدريب على طريقة المشي فقط، في البهو الملكي، الأضواء خافتة كقاعات السينما، اللهم إلا بعض الأضواء الزرقاء المتداخلة بلا مصدر مرئي، كأن الحوائط هي من تخرج النور من داخلها، تلده بمعنى أدق، تُنير صور العائلة المالكة المعلّقة على جانبي الحوائط بشكل دائري

شبة مكتمل، تتوسطها صورة عملاقة بريشة العملاق "السير ديفيد والكي"، وأمامه تمثال رخامي ضخم لمؤسس المملكة الأول، الأب الكبير، السلطان المعظم "محمد علي باشا المسعود بن إبراهيم آغا القوللي" أو محمد علي باشا فقط كما يدعوه الكل، وبينهم صور للأمير طوسون والأمير إبراهيم باشا، ثم باقي أفراد المملكة وصولًا إلى جلالة الملك محمد علي الثاني، أطال اللّه عمره.

متحف متكامل هو بهو هذا القصر، يجعل من له باع في التاريخ أو الآثار أن يفرك أصابعه نشوةً بما سيراه.

بالطبع لم يكن البهو يتزيّن بلوحات دافينشي ورينوار وتماثيل محمود مختار فقط،بل أيضًا كانت هناك قطع كبيرة من الآثار موضوعة بعناية فائقة لتتسلط الأضواء عليهم كمركز للإشعاع الثقافي للحضرة الملكية.

هناك قطعة من عواميد أثينا الشهيرة، رخامية الصنع، وهناك تمثال كبير لزيوس سيد آلهة الأوليمب، وقد كانت مهداة لجلاله الخديوي إسماعيل - رحمه اللّه - يوم افتتاح قناة السويس من السلطان العثماني، الذي بدوره قد حصل عليها يوم غزا جده محمد الفاتح القسطنطينية، هناك تمثال فرعوني للإله حورس بوجهه الطائر،

وهناك تمثال للسيد المسيح مصلوبًا من الذهب الخالص، وهناك تمثال آشوري يقبع بجانبه، والكثير والكثير من القطع التي لا تُعد ولا تُحصى، بالطبع كنتُ أنا أستمتع بكل هذا في نشوة بالغة، فهذه كانت أول مرة لي أدخل بها القصر الملكي، أو بالأحرى أول مرة وأنا واعٍ لما أراه، أستمتعُ بهذا، وأنا أستعدُّ لما سأؤولُ إليه.

بعض الراقصات تقدمن في وسط البهو الملكي بين الحاضرين يرتدين زيًا موحّدًا يكشف كل شيء صراحة، كل مفاتنهن ما عدا ما تلوّن منها، يستعددن لفقرتهن أو كن يستعددن إلى أن ظهر الحراس الملكيون، فالكل يعرف أنها تشريفة جلالة الملك.

كل من كان يرفع هاتفه الذكي للتصوير يعرف القواعد جيدًا، ولهذا أدخلَ كل المدعوين هواتفهم في جيوبهم بعد أن أغلقوها فعلًا، التصوير في هذه اللحظة ممنوع، فقد يتسرّب مقطع ما للعامة، وهذا ممنوع منعًا باتًا، العامة حاقدون، وقد تغضبهم أو تستفذهم صورة أو فيديو كهذا.

هم لا يحملون هواتف بالفعل، ولكنهم سيرونها بطريقة ما، ولهذا فقد منعت نِظارة الداخلية الهواتف والتصوير منعًا باتًا، بالرغم أن بعض الباشاوات قد أخلّوا بالقانون قليلًا، وأدخلوا

ساحر الكتب

هواتفهم لتسجيل اللحظة المنتظرة، لحظة نزول جلالة الملك للاحتفال، الكل يرضخ للأموال في نهاية الأمر حتى رجال القانون، بل القانون ذاته، ويا لها من لحظة منتظرة بين المدعوين! لطالما تحدّثوا عنها كثيرًا، فجلالة الملك لا يظهر للعامة كثيرًا، خصوصًا بعد تعرّضه لمحاولة اغتيال العام قبل الماضي، يقول أحدُ الحاضرين لآخر:

– هل تظن أنه سيكون هنا اليوم؟

يرد:

– أتقصد ذلك السفاح؟ ما اسمه ثانية؟

قال:

– لا أحد يعلم يا باشا، ولكنّه يترك دائمًا أثرًا ما بجوار الجثة، ثمرة كمثرى أو شيئًا من هذا القبيل.

تدخّلت في الحوار بينهما وقلت بابتسامة:

– مانجو يا باشاوات، ما يتركه هو ثمرة مانجو.

نظرا إليّ وهما يتساءلان من أكون يا ترى، قلتُ وأنا أُعيد الابتسام ثانية:

– شاكر بك أبو العزايم، صاحب..

قاطعني أحدهما وهو يمد يده بشغف لي يصافحني:

- صاحب توكيلات الهواتف الذكية "أبو العزايم باشا"، غنيٌّ أنت عن التعريف يا شاكر بك.

رددت له يده بعدما تلامستا في سلام، فرحّب بي الآخر قائلًا:

- محمد باشا الفادي، رئيس مقاطعة أسيوط.

قلت:

- تشرّفنا يا جناب الباشا، إنه لشرف لي مقابلة فخامتكم.

قال في تودُّد:

- بل الشرف لي سيدي، لطالما سمعتُ عنك وعن ثرائك، وعن مشوارك من الفقر للثراء، يا إلهي! كيف فعلتها؟

نظرت له فابتسمتُ وقلت:

- بعض الحظ وبعض من زوجاتكم.

نظر لي ثم لصديقه في صمت غير مصدّق ردي المفاجئ.

أضفتُ:

– إنني أمزح بالطبع.

ثم ضحكنا.

جاء النادل يحمل النبيذ السخي الأحمر في كؤوسٍ من الكريستال، فأخذ الباشا كأسًا ومرر لي الأخرى،فامتنعت قائلًا:

– لا أشرب للأسف.

أشار إلى النادل ليكمل المسير وقال:

– أنت تعرف ذاك السفاح، أليس كذلك يا شاكر بك؟

قلت:

– ومن منا لا يعرفه؟ صور قتلاه اجتاحت مواقع التواصل الاجتماعي يا باشاوات، المانجو سارت أيقونة الحرافيش يا سيدي الباشا.

قال الآخر:

– أنا متابع هذه القضية بنفسي, وسأصل له إن عاجلًا أم آجلًا، أعدكم لا مزيد من المانجو، سيدي.

نظرت له ثم قلت:

– هل لي شرف التعارف، سيدي؟

قال:

– سعيد عامر بك قائم مقام الأميرلاي عن مقاطعة القاهرة، سيدي.

قلت وأنا أمدُّ يدي لأصافحه:

– الأمن والأمان بنفسه! لكم أنا سعيد ب..

قاطعنا جميعًا صوت متحدث في مكبر الصوت الكبير قائلًا:

– سمو الأمير راسخ بن عباس حلمي الثالث باشا، ولي ولي عهد مملكتنا المصون، أعطاه اللّه العافية.

تعالت أصوات الهتافات والتصفيق الحاد وهو يتقدّم التشريفة الملكية، نظرت له.

كان يرتدي البزة الرسمية للحفل المكوّنة من بنطال وسترة مصنوعين خصيصى له عن طريق شركة أرمن بالتعاون مع كالفين كلاين العالميتين، مطرّزة بالحرير والجواهر، ومزينة بالنياشين الملكية التي اكتسبها في مراحل حياته الأميرية والدستورية، ويعتليها طربوش أحمر عثماني رسمي صناعة إيطالية، وكان يسير بتؤدة مع زوجته شاهي هانم حفيدة شاة إيران السابق محمد رضا بهلوي، كانت آية في الجمال كما وصفها الكتاب في عصرنا هذا، الكل يعرفها، الكل حلم بها، الكل كان يتمناها زوجته هو، لكنها أرادت سمو الأمير، العلاقات السياسية وما إلى ذلك، السياسة التي تجعل هذه الجميلة تحتضن ذلك الشره السمين ليلًا على فراش ناعم، إنها السياسة الملكية سيدي، وهكذا تزوجن.

نظرتُ إلى الباشاوات اللذين التمعت أعينهما من وراء القناع أو هكذا أُوحي إليّ، ثم قال سعيد بك:

– أخ يا ليتني أمير لأحظى بمثل هذه الجميلة، أميرة حقًّا.

قلت لهما:

– أستأذنكما يا باشاوات،عليّ قضاء امر ما، أراكما على العشاء.

حييتهما ثم أكملتُ طريقي، كان عليّ أن أُنهي الأمر قبل نزول جلالة الملك إلى الحفل، هذا هو أنسبُ وقت.

اقتربت من الأمير راسخ بخطوات ثابتة، كان يحيطه الجمع من كل جانب، الكل يتودد بالطبع، فرجال الأعمال والبكاوات والأجانب أصحاب النفوذ يريدون المصلحة الشخصية، الكل يطمع في رضاء سمو الملك القادم.

الكل يعرف نزواته وعلاقاته وأمواله الطائلة التي إذا ما وضعت في غرفة ملأتها وفاضت، الكل يريد أن يكون صديق العائلة حتى يتسنى له التضخّم أكثر فأكثر.

اقتربتُ غير عابئ بالزحام، والأقنعة والملابس العسكرية الزائفة، وعبرتُ حتى وصلت له.

قلت بصوت جهوري:

– مولانا،هل لي من شرف أن تُصافح يدي الضعيفة يدكم النبيلة؟

نظر لي ثم ابتسم وقال:

– شاكر بك، عرفتك حتى وأنت متنكر، اقترب.

اقتربت ثم لثمت يده كعادة رسمية للتحية.

ربت على ظهري وقال:

- لم أكن أعرف أنك تحضر الحفلات من هذا النوع، ما الذي جرى؟

قلت:

- مناسبة سعيدة كهذه بالطبع عليَّ أن أحضرها لأهنئ فخامتكم بالحفاظ على العرش.

ابتسم وقال:

- مجامل أنت يا بك، مجامل كعهدي بك.

قلت:

- أتسمح لي أن أدعوك إلى شراب سريع؟ دقيقتين فقط.

نظر طويلًا ثم قال:

- وكيف لا أوافق؟ بدونك ما استطعت الولوج إلى الشبكة العنكبوتية قط.

ابتسمت بدوري، فأشار إلى زوجته فوافقته، وهمّت بالابتعاد، خطفت لها نظرة، ويا لها من نظرة ثمينة! جميلة أنتِ يا أميرتي.

ذهبنا حيث البار الداخلي للقاعة العملاقة التي يعمل بها إيطاليو الجنسية، يسكبون الشراب ويصنعون الكوكتيلات.

أشار سمو الأمير إلى النادل فصنع لنا شرابين.

رشفت منه ثم قلت:

- كيف هي صحّة معاليكم يا باشا؟ عسى أن تكون بخير كعهدي بك.

قال:

- بخير حالٍ يا شاكر، لم أرك منذ دهر.

قلت:

- أنت تعلم، السوق ومتطلباتها يا باشا، على العموم لست هنا لأشاركك أحزاني كسائر البشر، فقط أخبرك أنني قد نشرتُ ما اتفقنا عليه.

قال وهو ينظر إليَّ:

– أعلنتُ عن المكافأة التي أخبرتك بها؟

قلت:

– سيدي، كافة منازل المملكة حتى حدود الجزائر شرقًا، وكريت شمالًا،وإثيوبيا جنوبًا،والعراق غربًا يبحثون معنا،وهناك خبر سيفرحك.

قال بشغفٍ:

– وما الخبر؟

قلت:

– هناك من رأوه في مقاطعة الناصرة في فلسطين.

قال:

– عفارم عليك يا بك، لك ألف جنيهٍ مكافأة خاصة لك حين أقبضُ عليه.

قلت:

– ألف جنيهٍ لي، وألف لمن يقبض عليه؟ كثير هذا يا باشا.

قال:

– ليس مهمّا أبداً،المهم أن نقبض على صاحب المانجو هذا يا بك.

قلت:

– ولماذا أنت مكترث هكذا؟ لا أظن أنه قد وجه تهديداً يُذكر لفخامتك!

قال بلهجة عدائية:

– ماذا دهاك يا بك؟ وهل سأنتظر حتى يُهددني؟ هل سأنتظر حتى أرى ثمرة مانجو بجانب رأسي المتدلي كما يفعل مع الكل؟

قلت:

– هدّئ من روعك يا فخامة الأمير، أنا فقط أتساءل.

قال وهو يرشف من كأسه:

– كمال باشا آخر ضحاياه، كان صديقي المقرّب، ولن أنتظر حتى يطولني نصله.

قلت:

– حاشا للّه جناب الأمير، حسنًا، إعلاناتنا على الشبكة ومواقع التواصل الملكية والعامة وحتى الجرائد والمجلات والشوارع مليئة بتنويهات سيدي كما أمرتَ، سيقع عمّا قريب، التحصينات...

قال وهو يهم بالوقوف:

– التحصينات هي ما نحددها نحن، عليَّ أن أذهب الآن لأستقبل الباشاوات في الحفل، كما اتفقنا يا شاكر بك.

ابتسمت ثم قلت:

– متى سيظهر جلالة الملك؟

قال:

– عما قريب، علينا أن نؤمن الحفل أولًا، استمتع يا بك.

حييته برفعي للكأس، ثم تجرعت منها، وعبرت الازدحام، ثم هممت بالخروج الي الحديقة.

آااه على الهواء الطلق بعيداً عن التصنّع والابتسامات السخيفة والملك وحاشيته، أخرجتُ سجائري وأشعلتُ سيجارة، ونفثتُ الدخان إلى اللاشيء، إنه السلام النفسي الذي أحتاجه فعلًا.

نظرتُ إلى ساعتي الرقمية، ثم نظرت أمامي.

رستم باشا، باقي من الزمن ٥ دقائق فقط.

إنها اللحظة المنتظرة إذاً، بحثت عن العلامة، ها هي، خلف هذه الشجرة، أخذت الكيس البلاستيكي، وارتديتُ ملابسي الأخرى، ملابس العمل، البنطال الأسود والجاكيت الأسود الجلدي، ورفعت النصل، وها هي ثمرة المانجو الطازجة.

ارتديتُ القناع الأبيض، ووضعت القبّعة.

ناديت:

- رستم باشا، رستم باشا.. أتسمح لي بكلمة يا باشا؟

قال لي:

- خيراً؟

قلت وأنا أبتسم:

- خيراً، خيراً يا جناب الباشا.

* * *

٢

كانت الموسيقا تتصاعد شيئًا فشيئًا بداخل القاعة، والراقصات شرعن في تأدية عملهن كما اتفق، يتهادين ذات اليمين وذات اليسار، وتتوسطهن راقصة هي بيضاء كالثلج، ولها نهدان كبيران، جميلة هي، تتمايل كنسيم الصيف الحار هي، تحرّك المشاعر هي.

كان الجميع يتساءل عن أسباب تأخر جلالة الملك إلى هذه اللحظة، الكل يترقب نزوله في شغف، الباشاوات كلهم قد تحضروا للاحتفاء به والثناء عليه، الكل ينتظر.

خفُتت الموسيقا حتى صارت غير مسموعة أبدًا، موجودة هي ولكن غير مسموعة، وكفّت الراقصات عن تمايلهن.

ثم جاء الصوت من مكبّر الصوت الإليكتروني يقول بعظمة مبالغ فيها جدًا وشجن: مولانا جلالة الملك المفدّى، صاحب المملكة المصرية وصف الشرق الأوسط، مولانا عظيمنا محمد علي الثاني.

خفتت الأضواء، وظهر الدخان من كل جانب، وعند الدرج تقدم الحرّاس يحملون الأسلحة البيضاء كنوعٍ من التقليد العثماني الممتد إلى أبد الدهر.

ثم ظهر جلالة الملك، يا لعظمته وفخامة ملابسه، الذهب يكسوها من كل جانب، والطربوش الملكي، والنياشين، وفي يده تتعلق سمو الملكة هانم "هدى فخر الدين" ابنة معالي ناظر الداخلية السابق فخر الدين كامل، كان مشهوراً عنه القمع للعوام حتى كرهوه وتمنوا موته، ولكم أشفق على جلاله الملكة لجمالها! إنها ابنة ذلك السفاح.

تقدمت الحاشية الملكية تستقبل جلاله الملك، ثم اصطف المدعوون، وهم يُحيّوُن جلالة الملك في تؤدةٍ وأدب، ويصفقون بحماسة، وهو كان يُحييهم برفع يده في جلالة.

تقدّم إلى المنصة الموضوعة بالأعلى حتى يكون في مواجهة الجمع، وقد وُضع له الميكروفون، وكوب من المشروب الملكي، وبعض المناديل، وخادمان اثنان عن يمينه ويساره، وقد ترجّل جلالة الملك في مواجهة مكبّر الصوت ليبدأ خطبته بمناسبة الحفل.

افتتحها قائلًا: بسم اللّه الرحمن الرحيم، نحن جلالة الملك محمد علي الثاني، حفيد مؤسس الأسرة العلوية.

هلّل الجميع فحيّاهم والدخان يتصاعد، والإضاءة الزرقاء تشعّ. سليل عائلة القللي الألبانية العريقة،

ابن الملك أحمد فؤاد الثاني، فاتح السعودية، وليبيا، عظّم اللّه قدره.

هلّل الجميع فرحين ثانية، فأشار إليهم وأكمل حديثه.

اليوم، ليس كأي يومٍ في العام، اليوم تحلُّ علينا ذكرى لا ينساها تاريخنا، اليوم هو أول أيام العام المصري الخامس والستين، بعد محاوله الانقلاب الفاشلة على جدي رحم اللّه روحه الكريمة.

كما تعرفون يا باشاوات، وكما هو متّفق عليه كل عام، وكما هي العادة، أذكركم بما حدث في الماضي، وكيفية التحول من دولة صغيرة لمملكة عريقة في مجلس الأمن.

أشار جلالة الملك إلى الوراء، فظهرت شاشة تليفزيونية كبيرة جدّاً في الخلف، عملاقة كانت.

أشار إشارة أخرى فظهرت صورة سوداء وبعض الحروف تشكّل كلمة "الهيئة الهندسية الملكية تقدّم، عيد الحفاظ على العرش"، ثم انخفض صوت الجمع، وبدأت تعرض بعض الصور القديمة.

قال الملك شارحًا: في هذه الصورة، تظهر مجموعة من دبابات الخونة يحيطون بقصرنا هذا في العام

الأول لمصر، عام ١٩٥٢ ميلاديًا.

يشير بعصا قائلًا:

وهنا الخائنون يتقدّمهم زعيمهم، وهنا جلالة الملك ينظر إلى إقرار التنازل الذي قدّمة له علي بك ماهر، وهنا في صورة نادرة لأبي وهو يمزّق الإقرار، ويطرد مندوب الخائنين، في هذه اللحظة بالذات تغيّر التاريخ فعليًا.

تتغير الصورة – وهنا عندما أمرَ جدي الملك فاروق سلاح الفروسية والحرس الملكي بالتعامل.

تتغير الصورة – يوم ٢٩ يوليو ١٩٥٢ ينتهي بإعدام ٢٤ خائن بمجموع قتلى ١٥٢١ خائنًا.

تتغير الصورة – عام ١٩٦٢ ومحاولة انقلاب أخرى فاشلة في نفس اليوم، ويبدأ جدي جلالة الملك فاروق عملية التطهير والتأمين.

صورة أخرى – إعدامات الجماعة الإسلامية والقضاة وقادة الجيش المتعاونين في عملية الانقلاب الأخرى.

صورة أخرى – هنا العيد الأعظم، أبي و جدي يقيمان صلاة العصر في المسجد الأقصى بعد تحريره من

قبضة عصابات الصهيونية ورفع علم مصر الأخضر فوق الأقصى، عندما أعاد جدي تنظيم الجيش وتسليحه والدعوة إلى الجهاد، وقد كان.

صورة – وهنا أول رائد فضاء مصري يرفع العلم بجانب العلم الأمريكي والروسي على القمر ويخرّ ساجداً للّه من الفضاء.

صورة ملونة – هنا أبي أطال اللّه عمره، وأبقاهُ يضم ليبيا والعراق إلى جانب فلسطين والشام والسودان وإثيوبيا ليكوّن أكبر مملكة مصرية على مر التاريخ، أو كما أطلق عليها الأمريكان "مملكة الشرق".

صورة حديثة نسبيّا – هنا يجلس أبي مُتربعًا على المقعد الدائم لمجلس الأمن، ويعلن عن مشروعه النووي.

صورة أخيرة – وهنا، وأنا أسلّم كأس العالم لمنتخب مملكتنا لكرة القدم، بعد أشواط كثيرة ومحاولات التأهل، وأهبُ المدير الفني لقب "باشا".

يا لكثرة ما قدّمناه للعالم يا باشاوات! وستظل مملكتنا في السماء عالية إلى الأبد، رددوا معي: تعيش مصر.

هتافات: تعيش مصر، يعيش الملك.

الملك يُحيي الجمع، وهنا قرَّر أن يتّجه صوب المدعوين والانضمام لهم.

كنتُ أنا أقف بعيداً نسبيّا أستمتع بالنبيذ في نهم، وأنا لا أُلقي بالّا لا للمدعوين ولا لجلالة الملك، أشربُ كمن سيعيش ليلة واحدة فقط، وعليّ أن أستمتع بها قدر الإمكان.

يقولون إن هرمون السعادة ينشط حين لا تُلقي بالًا لشيء، وقد صدقوا، أنا سعيد فقط لأني لا أتحدثُ مع أحدٍ، لأني لست مضطرّا للتصنع وتسديد الابتسامات العشوائية لكل من اقترب مني، لست مضطرّا للاهتمام أبدًا، فقط أنا والبار والحائط من أمامي، ويا لها من متعة.

تمنيتُ لو طالت هذه اللحظة لتستمر إلى الأبد، فالجنّة بالنسبة لي ما هي إلا وسادة وجهاز تكييف فقط، لا أكثر ولا أقل.

كما نعلم جميعًا، فالحفل ما هو إلا عبارة عن بعض الموسيقا الكلاسيكية والرقصات العشوائية مع الباشاوات من يرتدون ملابس عسكرية اقتضاء بالانقلابيين في الذكرى الأولى، ثم تخفت الأضواء، ويصعد الملك إلى حجرته الملكية، ثم تبدأ أجواء

الحفل الحقيقية، موسيقا التيكنو والهاوس الغربية والرقص والسُّكر والعربدة، أي شيء يخطر لك تفعله في هذا اليوم إن كنت من القلة المحظوظة من أغنياء الباشاوات، حتى الباشاوات كلهم لا يتمكنون من الحضور كل عام، فقط شرذمة ممن أحسنوا الصنع طيلة العام، و قُدّم عنه تقرير مُرضٍ من البوليس السياسي والبصّاصين المنتشرين في كل جهة.

أستشعرُ بداخلي أن جلالة الملك ما هو إلا بابا نويل مصري، يعطي الهدايا والإكراميات للطفل الذي أطاع والديه طوال العام، وهو لأمر مثير السخرية، هذه المملكة قد شاخت، والشيخوخة تولّد الأفعال الطفولية، وكثرة المؤامرات تجعل أي باشا يرتاب في نفسه وشاربه، الكل يخاف من كل شيء هنا، بعكس طبقة الفقراء أو البروليتاريا في مصر، مشكلاتهم ينهونها في وقتها إما بالدم وإما بالتراضي، ثم ينامون مرتاحي البال، هنيئًا لهم.

أجواء الحفل مستمرة، والرقص سيبدأ الآن فالملك على وشك التحية والصعود، ولكن ما توقعتُه قد شارف على البدء حالًا، ها هو ذا أحد الرجال الذين يرتدون البزة السوداء يقترب من أذن الملك ليهمس له بشيء ما، ثم تتغير معالم وجه الملك، فيشير إلى زوجته إلى الصعود ثم يشير إلى الجارس بشيء ما، فيُهرع إلى الخارج.

من أنا لأكترث؟ فليكن ما يكون.

اقتربَ الملك من المنصّة وأحاطه الكثير من الحرس السود، ثم أشار إلى الفرقة الموسيقية لتصمت، وأمسك بالمكبّر وبدأ حديثه:

قال:

– اعذروني يا باشاوات، سأقطع الحفل لأمر مهمٍّ.

تساءل الكل في همهماتٍ جانبية، وبدأ التوتر يعمّ المكان.

أكمل جلالة الملك:

– خبر غير سار، أعزّائي، رستم باشا ناظر الحقانية تُوفي.

صمت الجميع لا يدرون ما يقولون، فقط قال أحدهم:

– إنّا للّه وإنّا إليه راجعون.

قطع الهمهمات جلالة الملك قائلًا:

– هو لم يُتوفّ، هو قد قُتل.

صيحات مفاجئة من الباشاوات، ثم أضاف الملك:

– أرجو مُراعاة النظام، أنا لم أكمل بعد.

نظر الكل في انتظار البقية، فقال:

– أعرف أن سيادة الباشا القائم مقام هنا، هل له في التقدم؟

رفع أحدهم يده.

قال الملك:

– عرّف نفسك.

قال:

– سعيد عامر بك، القائم مقام الأميرلاي فخامتك.

أشار إليه ليتقدّم بجانبه، ففعل.

قال الملك:

– رستم باشا قد قتل، وقد وجدنا بجانب جثته إمضاء السفّاح المشهور، ثمرة المانجو، الحراس أكدوا أنه لم يدخل أو يخرج أي أحد منذ بدء الحفل, وهذا يعني أنه ما زال هنا.

بدأ التوتر يزداد، فأضاف:

– نحن ننشر الكلاب البوليسية والحرس الملكي وسيجدونه, ولكن هناك احتمال وارد بأنه يختبئ بينكم ويرتدي قناعًا.

قال القائم مقام:

– اسمح لي يا مولاي.

أشار إليه الملك، فقال:

– أطلبُ من حضراتكم يا باشاوات أن ترفعوا الأقنعة، وأن يُضاء النور قليلًا،وإذا ما كان بيننا غريب سنعرف أنه هو،الآن يا باشاوات.

الكل بدأ ببطء في رفع الأقنعة، وهمهم بعض الباشاوات قائلين:

– لقد جئنا لنحتفل لا لنُهان.

وقال آخر:

– ما هذا السخف؟

أشار القائم مقام إلى الحرس ليتحرّوا هوياتهم، وقد فعلوا.

مرّت نصف الساعة على ذلك الوضع.

ثم قال الملك:

– لا يوجد غريب بيننا، وليس مختبئًا في أي مكان بالخارج، ولم يدخل أو يخرج أحد ما، وهذا يعني شيئين، إما أن السفّاح شبحٌ وإما جانٌّ، وإما أنه أحد الباشاوات.

نظر كلٌّ إلى مرافقه في شكٍّ، حالة من البارانويا اجتاحت الجميع وكُلٌّ كان يبتعد مقدار خطوة عن الآخر.

ثم أضاف الملك:

– لا تُهرعوا، فهناك كاميرات مراقبة، وسنعرف من يكون.

ابتلعتُ ريقي بصعوبة، كاميرات مراقبة؟

قال القائم مقام وهو ينزع طربوشه:

– سأطلب من الحرس الملكي أن يعرضوا آخر نصف ساعة من الحفل على شاشة التلفاز العمومية، وسنرى جميعًا من سيكون.

جاء بعض المهندسين العسكريين وبعض الحرس الملكي، وأضافوا بعض التوصيلات، وكنتُ أنا أتلذذ بآخر رشفة من النبيذ الملكي، وأستعدّ.

جاء العرض سريعًا لمنظر الحديقة، صورة نقية جدًا، هدوء وظلام، الكل يشاهد ويترقّب.

ثم اقترب رستم باشا من الكاميرا بكرشه المعهودة وصلعته البيضاء.

ثم توقّف فجأة ليدخل إلى الكادر شخص يرتدي زيًا غريبًا، وقناع وقُبعة، ويرفع نصلًا طويلًا، يتوقفون قليلًا، ويتراجع رستم باشا ثم يطعنه الشخص في قلبه، ثم يهمّ بذبحه ويُخرج منديلًا ويمسح الدماء ثم يُخرج شيئًا ما.

صاح الجميع:

– المانجو، ها هي ثمرة المانجو.

ثم ينتهي، فيُلقي المنديل على الجثة، ثم ينزع القناع،وينظر للكاميرا ويضحك في جنون.

تتوقف الصورة وينظر الكل في دهشة، ثم ينظرون إليّ.

ضحكت، ضحكت بكل جنون وعظمة، وأخرجتُ قداحة وسيجارة وأشعلتُها.

قلت بجنون وأسلوب مسرحي:

– لم تتوقعوا أنه أنا، صحيح؟ هاهاهاهاهاهاها

نظر الملك إليَّ وقال:

– أنت؟ أنت يا شاكر بك؟

كدتُ أُعلّق، ولكن الحرس كانوا قد أحاطوا بي مشهرين أسلحتهم.

قلتُ بهدوء:

– بعض الهدوء يا حرس، لم أهرب منكم، فقط سأكمل سيجارتي.

أدخلتُ يدي في سُترتي، ولكن قبل أن أُخرجها كانوا قد أسقطوني على الأرض بمهارة.

قلت:

– لا تتهوّروا، أنا فقط أُخرج فرشاة شعري.

ورفعتها أمامهم، كانوا مذهولين مما يرونه، وكنتُ أنا أُرجع شعري إلى الوراء.

أخذني الحرس ونظروا إلى الملك، الذي بدوره قد أشار إليهم ليربطوني بحبل في مقعدي.

قال الملك:

– وماذا سنفعل؟ نعدمه؟

قال القائم مقام:

– لا يا سيدي وإن سمحت لي، سنستجوبه هنا إلى أن يأتي الدعم، هي فرصة لن تتكرر، نريد أن نقفل القضية. هذه قضية القرن.

قلتُ بلا مبالاة موجهًا كلامي لراسخ باشا:

– الألف جنيه، لا تنسَها، فقد ساعدتُك في القبض عليَّ هاهاهاها.

٣

ساعة تمر وراء الأخرى،وقد انتهى الحفل ضمنيّا،ولكن الباشاوات قرروا أن يتابعوا سير الاستجواب، فقد كانوا مهددين هم أيضًا بالقتل.

كنتُ جالسًا على كرسي خشبي قد أتوا به من الردهة، وقام الحرس الملكي بتكبيلي بالحبال، ويداي إلى ظهري في مواجهة الكل، وكان شعري الطويل قد ثار على جانبي وجهي وملامح الضرب قد ظهرت عليه، يا لقسوة الحراس! مرتزقة أفارقة على البان هم، لا يفقهون إلا إشارات الملك فقط، لا يعنيهم أي شيء إلا الملك فقط.

قلتُ وأنا أفكّر:

- جلالة الملك لا يثق بشعبه فيأتي بحرّاس أجانب، هاهاها يا لك من وطني جلاااا..

هنا وجّه إليَّ أحد الحراس صفعةً قوية جعلتني أبصقُ دماء من فمي، فأشار إليه القائم مقام الذي قد أعطاه الملك الصلاحيات للتحكّم في الحرّاس.

قلتُ بلا اكتراث:

– لا تنسَ أنني ما زلت (بك)، وأملك من الحصانة ما قد يخرسك إلى الأبد أيها القائم مقام.

لم يلتفت إليّ وقال وهو يعقد يده وراء ظهره:

– شاكر بك عزيز أبو العزايم، شرقاوي الأصل، ابن عزيز السايس، الذي كان فقيرًا مقفرًا يتمسّح في أسياده الباشاوات ليأخذ إكرامية بضعة قروش جرّاء مسح زجاج سياراتهم.

نظر بتشفٍّ ثم قال بصوت جهوري أمام المدعوين:

– وأمه، كانت تبيع الصابون السائل في منيا القمح قبل أن تتمدن وتخدم أسيادها.

ثم نظر لي وابتسم وقال:

– من والدك يا ابن جميلة؟ هل هو عزيز فعلًا؟

قلت: يبدو أنك قد بحثّت جيداً عني يا باشا.

قال:

– تاريخ الباشاوات كلهم في جعبتي، أنا لم أتقلّد المنصب هذا من فراغ.

كان جلالة الملك قد نصب كرسي عرشه بالأعلى، وكان ينظر لي ويتابع، أما المدعوون كانوا قد جلسوا مرتصّين على سلالم القاعة كالاستاد الرياضي يتابعون في شغف، لربما صاح أحدهم في حماسة ليقول: "حكم مرتشٍ، لم يحتسب ضربة الجزاء".

أكمل القائم مقام قائلًا:

– ما الذي قادك لتصير سفّاحًا يا شاكر بك؟ ماذا ينقصك؟ أنت لديك من الأموال والشهرة ما لا يتمناه سمو الأمير راسخ نفسه، تستطيع شراء جزيرة ضخمة وتصنع منها دولتك، لماذا فعلت هذا؟

بلا أي تعبير وجهٍ قلت:

– فرغت؟

قال:

– أجبني أولًا لماذا ف..

قلت مقاطعًا:

– فرغت؟

قال:

– نعم، لقد فرغتُ.

قلت:

– أدخل يدك في جيب سترتي وأخرج لي لفافة تبغ.

نظر لي ثم صاح:

– أتظن أنك تتسلّى يا ابن العاهرة؟

قلت:

– أخرجها لي، وأشعلّها ثم ضعها في فمي، ووقتها سأقصّ كل شيء.

همهم بشيء ما في عصبيةٍ ثم داعب شاربه الكث مفكّرًا، ثم فعلها في النهاية.

بشيء من الغرور مَدّ القائم مقام يده إلى سُترتي ثم أخرج لفافة التبغ ووضعها في فمي وهو ينظر لي.

قلت من وراء اللفافة ساخرًا:

– اشربّها مشتعلة من باب العلم بالشيء!

همهم ثانية ثم أخرج قداحته الذهبية واقترب من فمي يشعلّها.

عندما اقترب من وجهي قلتُ:

– إذا أردتَ إجابات، لا تسبّ أمي ثانية يا ابن المومس.

ثم ضربته بجبهتي بعزم قوتي، فقط ليتلقى الضربة على أنفه ليتهشم ويختلّ توازنه ويتعثّر.

هنا سمعت أصوات الصواعق الكهربائي في أيدي الحرّاس يتم تفعيلها للدفاع عن سيدهم.

قلت:

– لا أحد يضرب، أرجوكم، لقد سبّ أمي ورددتُها له، إذا اقترب مني أحد أُقسم ألّا أحكي شيئًا.

كانوا يقتربون، ولكن أشار إليهم جلالة الملك بالتوقف فورًا، ثم أشار إليّ.

هنا، نهض القائم مقام يسبّني بأفظع الألفاظ ويصف أهلي كلهم بأشياء تجزع منها النفس وتغضب.

قال الملك:

– أكمل يا أيها القائم، وخذ حقك منه بعدما يقول ما في جعبته.

أخرج القائم مقام منديلًا من سُترته، وأمسك بها أنفه النازف، وقال لي:

– حسابك سيكون عسيرًا عندما تأتي الدورية يا شاكر، سأ...

قلت وأنا أنفث دخان سيجارتي:

– شاكر بك إذا سمحت.

نظر لي نظرة نارية ثم قال:

– حسنًا، قصّ علينا إذًا لماذا فعلت هذا؟

نظرت لهم كثيرًا وأنا صامت، حتى خرج الملك عن شعوره وصرخ:

– أيها المخنث، احكِ، وإلا أعدمتُك حالًا.

قال القائم مقام وقد تغيرت نبرته:

– مع احترامي لجلالة الملك, شاكر بك، هل ترى هؤلاء الباشاوات؟

قلت:

– هل تختبر نظري؟

قال دون أن يبتسم حتى:

– هؤلاء يا شاكر بك سيفتكون بك إذا ما أطلقناهم عليك، كل واحد منهم قد تلقّى تهديدك، وقد ارتعبوا ساعات وأيامًا بسببك، أعمالهم توقّفت بسببك، هل ستتكلم؟

قلت مُفكّرا وقد بدت عليَّ ملامح السخرية:

– مع أنني لا أخاف لا من بك ولا من باشا، لكنني هنا لأتكلّم بالطبع.. فجلالة الملك يكره الانتظار – انتظر، ألم يكن ذلك شعاره؟

نظرت إليهم، الكل ينتظر الفرصة ليبدأ بضربي، يقفون في صفٍّ موحّد ينتظرون الحكم لإطلاق رصاصة البدء ليفتكوا بي، ينتظرون في شغف كما لو أنها الأوليمبياد، كُلٌّ يفكّر كيف سيتجاوز الذي أمامه لينال جزءاً من جسدي ليضربه، الكل يخطّط الآن.

ابتسمت وظهرت الابتسامة على وجهي، هَمَّ أحد الحراس ليصفعني ثانية.

نظرتُ له بغضب وقد تناثرت شعيراتي ثم قلت للأميرلاي:

– جناب القائم مقام تسمح لي بكلمة؟ اقترب من فضلك.

قال:

– لا، تكلّم من عندك.

ضحكت وقلت:

– هاهاها لا تخف يا باشا، لن أضربك ثانية.

شعر بالغضب وقد اكتظت ملامحه حتى كادت دماؤه تنفجر فتغرقنا جميعًا.

اقترب، فقلت:

– من أجل حضراتكم سأتكلم، وسأقصّ كل شيء منذ لحظة مولدي حتى جلوسي مكبّلًا هنا، ولكن بشرط واحد.

قال:

– ما الشرط يا بك؟ تكلّم فنحن خدّامك – قالها بسخرية – ونحن هنا لإسعاد فخامتكم.

ضحكتُ وقلت:

– ذلك الحارس – أشرت إلى الحارس بجانبي – قد صفعني مرتين، وأنا لن أنبس ببنت شفى إلا إذا أخذت لي حقي منه.

قال:

– أي حقٍّ أيها السفاح؟ احمد ربّك أنني لم أخرج طبنجتي الميري لأضربك بها.

قلت:

– هذا ما عندي، اصفعه أمام الكل، واطرده بالخارج، وسأتحدث.

قال:

– ما هذا الهراء أيها الحقير؟ أنت رجل كبير ولست طف..

قلت مقاطعًا:

– أنا طفل، ليس هذا من شأنك، فقط خذ حقي.

نظر لي، ثم أضفتُ:

– أقسم بروح أمي، بأنني لن أتحدث إلا إذا فعلتها أمام الكل.

صمت مفكرًا، ثم اتجه إلى جلاله الملك ليهمس له، فيومئ الملك برأسه موافقًا.

اتجه إلى الحارس، وقال:

– قل لي يا فتى، ما اسمك؟

قال:

– الحارس العالي رفعت عاصم في خدمتك معاليك.

نظر له و قال:

– عفارم عفارم.

ثم رفع يديه وبقوة صفعه حتى إني قد سمعت فكيه يصطكّان بعضهما ببعض، وكان يصيح:

– لا تضرب بك أبدًا إلا إذا أمرتك أيها الحارس، أبدًا، مهما يحدث هو بك وأنت خادم، خاااادم.

ثم صفعه ثانية.

أنا:

– هاهاهههههاااااااااااهاهاهاهاهاها.

كنت أضحكُ كالمجنون، وأنا أشاهد هذا المشهد، يا له من مشهد عبقري.

نظر الكل لي يتساءلون عن نوبة جنوني.

أكمل القائم:

– اخرج ولا تُرني وجهك أبدًا، أبدًا.

فخرج الحارس لا ينظر إلى أحد.

اتجه القائم مقام إليَّ، ثم قال هامسًا:

– والآن، ستتكلم.

قلت:

– أريد أن أشرب بعض المياه المثلجة أولًا.

قال وقد نفد صبره وأمسك بي من ياقة قميصي:

– اسمع يا هذا، (بك) أو لا ستتكلم، مجنون أم لا ستتكلم، وإلا أُقسم بربي ستموت كما قُتل الشاعر ابن المقفّع، هل تعلم كيف قُتل يا (بك)؟

قلت:

– لا، كيف قتل؟

قال:

قُطعت أطرافه ثم شويت، وأُجبر على أكلها حتى تقيَّأ ومات.

قلت:

– ما هذا الاشمئزاز؟ سأتقيَّأُ الآن إذا أكملت حديثك هذا.

قال:

– تكلّم إذاً.

قلت:

– وما الصعب في كوب من المياه؟ ماذا ستخسر؟ أريد أن يبتل ريقي، فالحديث سيكون طويلًا.

أشار إليَّ أحد الحراس فغاب وجيء بكوب الماء، ثم رفعه القائم بنفسه على فمي لأشرب.

ارتويتُ، ثم أخذت نفسًا عميقًا.

قلت:

– الحمد للّه، نتعشّى؟

قبل أن يصرخ القائم، ضحكت مقاطعًا ثم قلت:

– أمزحُ، أمزح.

أكملت:

– حسنًا سأبدأ، صلوا بنا على النبي.

قال القائم:

– أرى أنك لا تقدّر الموقف جيداً يا (بك)، أنت سفّاح، والموقف محتدم جيداً، ولا مجال للسخرية.

قلت:

– هذا لا يمنع أن نصلّي على نبينا قبل البدء.

قال:

– حسنًا، عليه الصلاة والسلام.

وكذا رد الجمع.

قلت بصوت جهوري:

– كيف تريدني أن أبدأ يا جلالة الملك؟

نظر الكل لجلالة الملك، فأشار إليَّ القائم مقام بوقار فقال القائم:

– يريد أن يعرف كل شيء جلالته، يريد أن يعرف قصّتك كلها، فنحن لا نعرف عنك شيئًا، نريد أن نعرف ما الذي أوصلك لما أنت فيه الآن، ابدأ من البداية، فبصّاصو المغفر لن يصلوا الآن.

قلت:

– حسنًا، سأبدأ من بدايتي، وستكون قصّة طويلة، لذا من يريد أن يذهب ليقضي حاجته فليذهب.

قال القائم:

– لسنا هنا لنلعب، وأقولها لك للمرة المليون، نحن رجال كا..

قال أحد البشاوات من الخلف:

– هل لي في الذهاب إلى دورة المياه يا باشا؟

ضحكتُ، وقال القائم:

– ستكون ليلة طويلة.

* * *

ساحر الكتب

٤

المحروسة ٢٣ يوليو ١٩٩٢ – بداخل أحد البيوت الفقيرة نسبيًّا – حي الخليفة

كان منزلًا متواضعًا جدًّا، كأي منزل في حي شعبي، حيث قطع الأثاث المُذهبة المتوارثة من جيل إلى آخر تتناثر هنا وهناك، الباب الخشبي ذو القفل الكبير والشرّاعة والزجاج الأبيض، هاتف بقرص لا لون له.

ورق الحائط "الذي كان منتشرًا وقتها"، صالة مكوّنة من مقعدين وأريكة متآكلة نسبيًّا، سجّادة حمراء قد سارت جزءًا من بلاط الأرضية، وانكمشت تمامًا من كثرة استخدام الصابون في غسلها، جهاز تلفاز خمس بوصات أو أقل لا تظهر فيه الألوان أبدًا، صور قديمة معلّقة لزوج وأب بشاربين كثّين تخيف المصارعين أنفسهم، كانوا يلتقطون الصور في قديم الأزل على غرار "إذا ما دخل علينا لصٌّ ذات ليلة ورأى الصور سيهم بالفرار"، نافذة تطل على نافذة أخرى في مبنى ملاصق، نيش عملاق قد سكنته العناكب، وبعض الأرواح الشريرة حتى صار (تابو) مُقدّسًا لا يختلف عن قصر دراكيولا في ترانسلفانيا.

صورة ذات برواز ضخم بها يقف الملك أحمد فؤاد الثاني شامخًا، وقد كان القانون وقتها يقتضي بتعليق مثل هذه الصور داخل المنازل إذا ما داهم البوليس السياسي المنزل عرف أنه منزل للشرفاء، أطفال يمرحون في سعادة مصطنعة، سيدة ترتدي جلبابًا متّسخًا وتربط رأسها كمن أُصيب بالصداع، تحمل على حجرها طبقًا معدنيًّا وسكينًا وتهمُّ بتقشير شيء ما، كل السيدات في الوطن العربي يقشّرنَ شيئًا ما في الصالة.

هو درب من العادات والتقاليد المتوارثة، لربما كان القانون الفرعوني ينصُّ على هذا في عهد تحتمس الثالث مثلًا.

تتابع في نهمٍ غير مفهوم خطاب جلالة الملك أحمد فؤاد الثاني في الأمم المتحدة.

كانت غير متعلّمة قط، ولكنها تتابع الخطاب في شغف وحماسة لا تقل عن حماسة بيل كلينتون رئيس أمريكا بالخطاب.

كان الملك يخطب في الأمم المتحدة ويعلن عن بدء المشروع النووي المصري الأول من نوعه، وكان اليوم هو عيد الجلوس أو "الانقلاب الفاشل" كما يسمّونه، ولهذا انعقدت الأمم المتحدة في هذا

اليوم ليخطب فيها جلالة الملك،وقد استغلها الملك في إعلان المشروع النووي المصري.

كانت أمي تجلس ولا تفهم شيئًا ألبتّة، فقط هي تنظر وتحاول الفهم.

كنتُ أنا في السابعة من عمري، لا أفقهُ أي شيء إلا عن المرح واللعب مع أبناء من الجيران والمدرسة.

لم أكن وقتها اكترث، وإن اكترثتُ فلأن أمي "سالمة" تتابع الأخبار في نهمٍ، تتابعها كما أتابع أنا الكرة مثلًا، تتابعها كما لو أنه سحب على ألف جنيه شاركت هي فيه، وهو لشيء محير.

في هذه الأوقات كنت مشهورًا جدًّا في الحي عندنا، يعرفونني في الشارع باسم "ابن الباشا"، ولم أكن قط أعرف معنى هذا الاسم، ولم أُفكّر فيه وقتها، فلينادوني بأي اسم، فقط ليتركوني ألعب، أريد أن ألعب وأكتشف العالم كأي صبيٍّ في عمري.

لم أكن أعبأ مطلقًا بكم الاختلاف الذي يُفرقني عن باقي ذويّ، شعري الطويل، وبياض وجهي مختلفان تمامًا عن وجه أمي "سالمة"، وأبي الذي لم أره مطلقًا، ولكن قل هذا لطفل في السابعة، قد يبتسم مجاملًا، قد يسخر منك، وسيتركك ليركض مع أصدقائه.

حسنًا، كنا هنا نسكن في مجاورة الخليفة، وهو حي من أحياء الفقراء الكادحين، أكثر سكّان المنطقة من الخدم الذين يعملون في القصر، فقد كان الحي ملاصقًا تمامًا لوسط المدينة حيث القصر الملكي.

قصر عابدين الفخم جدًا، حيث الملك وحاشيته وحُراسه ونظراء دواوينه، حيث السيارات الفخمة والأميرات الصغيرات.

كان حلم كل طفل بيننا أن يدخل القصر ليتذوق الفاكهة العذبة التي تُزرع في الحديقة الأمامية، التي تعجُّ بالبصّاصين والحراس في كل جهة.

كان صديقي "أحمد جمال" ابن جمال أفندي طلبة مدرّس الأمير محمد علي ابن الملك أحمد فؤاد الثاني الخاص، كان يملك ميزة الدخول والخروج من وإلى القصر وقتما يشاء، فالحرس يسمحون لمدرسي الأمير ولي العهد بالولوج إلى القصر ليعطوه الدروس اللازمة، و كان من وقت إلى آخر يصطحب ولده "أحمد" معه إلى القصر ليلعب مع أبناء الحاشية.

وكان أحمد "أو شكشك كما كنا نلقّبه نظرًا لحجم أنفه الكبير تيمنًا بشخصية عم شكشك في بوجي وطمطم الذي كان مشهورًا آنذاك"، دائمًا ما يقصُّ

علينا ما يراه بالداخل، مبهورين كنا نستمع له في شغف.

قال لنا ذات مرة:

– هناك ما يقرب من الألف شجرة بالداخل يا ابن الباشا.

وكنت أقول:

– لا تبالغ يا شكشك، المكان لا يسع لكل هذا.

فكان يقول في رياء:

– أنت لم تدخل القصر قط، أنا من رأيت، وأنا من يتكلم هنا يا حمار.

أقول:

– وماذا رأيتَ أيضًا؟

يقول:

– هناك من الحور العين ما يقرب من المائة لكل فرد بالداخل، يتراقصن في نهمٍ.

أقاطعه فأقول:

– الحور العين في الجنة فقط كما قال لنا الشيخ في المسجد، أيها الكاذب.

يقول:

– هل دخلت القصر؟ هل دخلت؟

ثم يكمل:

– هناك ملاك من السماء يسمى شاهندة، الكل يهتم به بالداخل، لها أجنحة كأجنحة الحمامة، بيضاء كالثلج، وقد كلّمتني ذات مرة.

هنا كنت أنفجر من كم الكذب، فأرفع خفّي لأصفعه به، وأنا أقول:

– كاذب يا شكشك كاااذب.

في ذلك اليوم كانت أمي كالعادة مشغولة بتقشير شيء ما في حجرها، ومنهمكة في متابعة المؤتمر كالعادة، فخرجت مع شكشك وصديقنا الآخر "سيد عوض" الملّقب بـ"شوكة"، وكنا نسير خارجين من الحي يقتلنا ملل الصيف وهواؤه الحار.

ثم ما إن خرجنا حتى رأينا سور القصر الأصفر يحيطه الحراس كالعادة، وقفنا نتأمل السور العالي ونحن نتخيل ما يجرى بالداخل.

قال شكشك:

– الهواء بالداخل بارد ومنعش، أنا دخلت ورأيت.

قلت:

– ويصنعون الهواء أيضًا؟ كم أنت كاذب يا شكشك.

هنا انفجر شكشك من كثرة ادعائي له بالكذب، فدفعني إلى الوراء لأتعثر في جلبابي البالي وأقع على الأرض قائلًا: أمامك القصر هنا يا غبي، إذا لم تكن تصدقني، فلتدخل بنفسك لترى، ادخل وائت لنا ببعض الثمار لنأكلها.

نظرتُ له غير مصدق ما يقول، وقلت في رعب:

– تريدني أنا أن أدخل؟ ولماذا لم تقل هذا لشوكة؟

قال:

– شوكة لم ينعتني بالكاذب، ألا تريد أن ترى بنفسك؟

قلت:

– أتمنى ولكن..

قال:

– لا تكن جبانًا يا ابن الباشا، أنت تشبههم بالداخل، فلتفعلها إذًا، وإذا لم ترَ أيًّا مما قلته لك من قبل، فسأعتذرُ إليك.

قلت:

– لا، لا أريد اعتذارك، ولكن ستتركني أضربك أمام الكل.

قال:

– لك هذا، سأترك لك جسدي لتتسلى عليه أمام الكل كيفما تشاء، ولكن عليك أن تدخل أولًا.

قال شوكة وهو يبصق كالكبار:

– وكيف سيدخل إذن يا أغبياء؟ هل سيذهب إلى ذلك الحارس الألباني ليستأذنه في الدخول؟ هذا لم يفرّق بيني وبين انقلابي مثلًا، سيضربونك بالنار.

قال شكشك:

– وشيء مثل هذا يا حمار سيفوتني؟ اعرف مدخلًا غير مؤمّن سيتمكن من دخوله بسهولة.

أشار لنا شكشك وتبعناه، وكنت أنا متوترًا حتى وأنا طفل صغير، عن كم الرعب الذي يُراودني إذا ما أمسكوني وأنا بالداخل، تصويرات الضباط الذين أعدموا لا تفارق مخيلة الأطفال قبل الكبار، كان الكل يخشى أن يغضب أي باشا أو (بك) حتى لا يقتلوا بقسوة.

وأنا مثلي كمثل الكل، رأيت، وسببت لي الصور الكوابيس وأيامًا من النوم على سرير أمي.

وصلنا إلى آخر السور من ناصية شارع محمد فريد، وهو شارع هادئ جدًّا، لا يوجد به حراس ربما لأنه شارع مهجور ربما، وربما لأنه الميدان الذي أُعدم فيه القضاة؛ ولهذا يخافه الكل.

أشار شكشك إلى السور وإلى بعض الأحجار الموضوعة بعضها فوق بعض كالدرج وقال:

– من هنا سوف تصعد، وتقفز للداخل، وستخرج من هنا أيضًا.

نظرت له راجيًا أن يكون قد غيّر قراره وعدّل عنه، ولكن طيش الصبية كان هو المسيطر على الموقف، سأقفز إذًا.

كنت أنا غارقًا في...

قال القائم مقام فجأة:

– هل نحن هنا بصدد ذكرياتك مع الأصدقاء يا روح أمك؟ فلتتكلم عن الجرائم وتُنهي هذا الهراء.

قلت:

– لا تقاطعني ثانية يا باشا، وإلا لن أحكي أي شيء، تريد أن تفهم إذاً، فلتعطني الفرصة.

نظر لي ثم تفس الهواء كالثور الهائج، ثم قال:

– مهما تقصص ستُعدم في النهاية، فلا تُطِل عليّ لحظة ضربك بالرصاص، أريد أن أفعلها وأنا مستفيق.

قلت:

– لا تتعجل يا باشا، حسنًا، أين توقفتُ ثانية؟

لم يرد فقلت:

– حسنًا، سأبدأ من البداية، كنتُ أقطن في حي الخليفة، وكان البيت مكوّن من..

صرخ فقال:

– كنت ستقفز بالداخل، واللّه كنت ستقفز في الداخل، ارحمني.

ضحكت وقلت:

– هاهاهاهاهاها كم أنا بارع، اخرج لي سيجارة يا باشا إذا سمحت.

قال:

– آخر واحدة وإلا ستموت قبل أن أقتلك.

قلت:

– لا تقلق، أريد أن أقتل وأنا بصحة جيدة هاهاهاهاهاها.

أشعل السيجارة وشرعت أكمل.

حينها كنت قد قرّرت القفز، وقفت فوق الصخور وتسلّقتُها، وأنا لا أنظر إلا إلى السور، أمسكت بكلتا يدي بطرف السور الأصفر ثم صعدت.

وألقيتُ أول نظرة إلى الداخل، اااه يا لها من جنة كانت! الكثير من الأشجار بالفعل، الكثير من الثمار، الكثير من كل شيء.

حتى النساء كن نصف عاريات يذهبن ويجئن هنا وهناك، لم أكن أعلم أن هذا يسمّى "حرملك" أي المكان المخصص للنساء فقط، ولهذا كن براحتهن.

نظرت إلى أصدقائي فقال شكشك:

– هل ترى الآن أنني لم أكن أكذب؟

قلت كالمسحور:

– صادق أنت يا شكشك، صادق أنت.

قال لي:

– أمامك شجرة، اقطف لنا بعض الثمار وهيا لنعُد.

قلت وأنا لا أفقه شيئًا:

– لا لن أعود ثانية، أريد أن أموت هنا.

قال شوكة:

– اسمع منه يا ابن الباشا، اقطف لنا ثمرتين أو ثلاثًا وهيا للبيت، لقد شارفت الشمس على المغيب.

نظرتُ لهم وقد تغيّرت ملامحي:

– لاااا، سأقفز إلى الداخل لأعيش للأبد، مع السلامة، قل لأمي إنني أحبُّها.

قالوا:

– لا يا مجنون، لا.

وهنا كنت قد قرّرت أن أقفز بالفعل، سأقفز لأتشبث بالشجرة ثم أنزل عليها، وأكون بالداخل، سأعيشُ في هذه الحديقة إلى الأبد، هناك ثمار تكفيني مئتي عام ويزيد.

قفزتُ، ثم تشبّثت بالشجرة وقطفت ثمرة صفراء، ونزلت عليها وأنا لا أُلقي بالًا بأي شيء، فقط أتخيّل نفسي أعيشُ في هذا النعيم إلى الأبد.

ما الذي يفرق بيني وبين مَن يسكنون هنا؟

ما الذي يجعلهم أفضل مني؟ ملابسهم مثلًا؟ أم تعليمهم؟ أم لأنهم أولاد باشاوات؟

كانت حديقة واسعة فعلًا، تعجُّ بكل شيء، أشجار وبحيرات وتماثيل غريبة ونساء، إنها الجنة كما وصفها لنا الشيخ في الكُتّاب،

كنتُ أختبئ خلف الشجيرات وأُفكّر كيف وأين سأعيشُ هنا، كنتُ أتنقّلُ بخفّة وأنا أرفع جلبابي

لأسير بحُريةٍ كاملة.

سرتُ كثيرًا وأنا أرى القصر من بعيد، بعيد جدّاً، وألمح بعض الرجال أصحاب الطرابيش الحمراء والشوارب الكثّة،هؤلاء باشاوات بالتأكيد، أغنياء بالفعل، يا ليت أحدهم كان أبي وكنت "ابن باشا" فعلًا، لكنت ألعبُ كل يوم في الحديقة هذه، ولكن لا تعطي الدنيا كل شيء.

كنت أمسك بالثمرة وأُنظّفها بجلبابي وأنا أتخيّل طعمها اللذيذ، فأنا لم أذق الفاكهة من قبل.

كنتُ أبتسم وأنا أحمل كنزي وأُنظّفه، ثم قررتُ أن آخذ قضمة.

وقبل أن آخذها، لمحتُها.

الملاك، إنها هي بالتأكيد، الـ"شاهندة " كما وصفها لي شكشك بالضبط .

بيضاء كالثلج، لديها جناحان "في ردائها بالطبع" يجعلانها كالملاك تمامًا، شعرها كان ذهبيّا، وكأن الخصلات الذهبية سمة الأغنياء فقط، جميلة كانت.

أنا كنت وقتها في السابعة، ولكن مشاعر الحب غريزية لا تعرف سنّا محددة، كلنا نحب أمهاتنا منذ

لحظة البكاء الأول، يحملوننا في أيامنا الأولى فنكف عن البكاء، هذا غريزي، وهذا ما شعرت به.

لم أدرِ بنفسي إلا وأنا أقترب منها، فالتفتت لي وهي تبتسم، قالت شيئًا لم أفهمه، مليء بحروف الغين، ربما فرنسية.

قلت:

– شاهندة، أليس كذلك؟

قالت وهي تبتسم:

– شاهندة صح، وأنت؟

شعرت أن العالم كله يحبني، كأني قد صرت بالغًا فجأة، وكأن كل العصافير تزقزق حولي، فلا أرى إلا ابتسامتها في ضوء الشمس، كم أنتِ جميلة، مليئة بالمفردات أنتِ.

قلت لها:

– أنا ابن الباشا.

قالت:

– أي باشا تقصد؟

قلت وأنا أبتسم بدوري:

– لا، هذا أنا ابن الباشا.

ضحكت وقالت:

– لا أفهم ولكنك ظريف.

قلت لها:

– أنت ملاك، أليس كذلك؟

ابتسمت ثانيةً، فشعرت أنني أطيرُ في مكاني، تأثيرها يشبه تأثير المخدر بالفعل.

قلت:

– أملك كنزًا، وهو ليس بالكثير، ولكنه هدية لك، اقبليها مني.

وأخرجتُ لها الثمرة التي قطفتُها.

قالت:

– مانجو؟

قلت:

– لا أفهم لغتك، ولكنكِ جميلة جدًا.

ضحكت ثانية وقالت:

– ما رأيك أن نلعب معًا؟ تعالَ معي أعرّفك بأبي.

ابتسمتُ بدوري وهممت بالسير خلفها، كانت تركض كالملاك فعلًا، تسير على العُشب فلا يشعر بها، وكأنها طيف أو روح تسكن الحديقة، ربما كانت ملاكًا فعلًا، لا أدري.

ظللنا نركضُ حتى وصلنا إلى باب القصر، وقفتُ بعيدًا عنها قليلًا، ثم اتجهتُ إلى أحد الباشاوات الواقفين ونادت:

– أبي، أبي.

نظر لها في حنانٍ ثم قبّلها فضحكت، وكنت أنا أهيمُ وأتمنى لو كنتُ أباها.

قالت:

– أبي، أريد أن أعرفك بصديقي الجديد.

نظر إليَّ، فتغيرت ملامحه الحسنة إلى بعض الاشمئزاز، ثم قال:

– من أنت يا هذا؟

قلت:

– أنا ابن الباشا يا باشا.

قال:

– أي باشا تقصد؟ ما اسمه؟ وكيف دخلتَ إلى هنا؟

قلت وقد بدأتُ أتوتر:

– لقد دخلتُ كما دخلتم، أنا ابن الباشا.

نظر الجميع إليَّ وقد بدا عليهم بعض التوتر أو هكذا أتذكر.

قال:

– اسمك يا فتى وإلا طردتُك خارج القصر.

قالت

– شاهندة: ماذا يا أبي؟ هذا صديقي.

قال:

– انتظري يا شاهندة، قل لي يا فتى اسمك.

قلت وأنا خائف:

– شاكر، اسمي شاكر أبو العزايم.

شهق الباشا ومن معه من الباشاوات، ثم صرخ فجأة بدون أي مقدمات كالمجنون:

– يا حراااااس.

قال الباشاوات في همس:

– لقد عاد، لماذا عاد؟

أتى الحراس من كل حدبٍ وصوب ينسلون، مشهرين أسلحتهم في اتجاهي، وأنا أتراجع وأقول:

– ماذا فعلت؟

قال الباشا:

– اقتلوا هذا الصبي سريعًا.

٥

قال القائم مقام:

– هل سنظل في مهاتراتك هذه يا (بك)؟ جلالة الملك يريد أن يقتلك وينتهي سريعًا، ووقت المملكة لا يسمح.

قلت:

– يا عزيزي، إما أن أقصَّ الأمر كله وإلا سألتزمُ الصمت.

لا تحرمني من متعة الحديث يا باشا، فهذه آخر قصّة لي، حتى حق الحديث تريدون حرماني منه؟

قال:

– يا حبيبي، لا نريد أن نشعر بالضجر يا بك، نريد الملخّص، حكاياتك وأنت طفل ومطاردات الشوارع هذه لا لن تنفعنا بشيء، أرجوك.

قلت:

– امممم حسنًا لك هذا، سأقص كل تفصيلة صغيرة منذ لحظة ولادتي وحتى يومنا هذا،

هاهاهاهاهاها.

أخذت في الضحك وحدي بين همز ولمز، الكل يتهامس، الكل يوقن تمامًا أنني مجنون فعلًا، وأنا أعيث مرحًا بينهم.

قلت بصوت جهوري:

– جلالة الملك، اسمح لي فخامتك.

أشار إليّ من مجلسه فقلت:

– لا تجعل القائم مقام يقاطعني ثانية، إذا سمحت فخامتكم، وإلا فلن أتكلم.

نظر له القائم مقام يتصبب عرقًا، فأشار له جلالة الملك، وابتسم كمن يستمتع بمشاهدة مباراة ما.

قال القائم مقام وهو يعدّل من وضع سترته:

– أكمل يا بك، أكمل.

قلت:

– مع أني كنتُ صغيرًا جدًا، أكاد أفقه الأمور حولي بصعوبة بالغة، ولكن غريزة الشعور بالخطر راودتني كما تراود قطًا صغيرًا يعبر الشارع فيقفز

ليتفادى سيارة مسرعة كانت سوف تدهسه، هي غريزة البقاء، الأدرينالين كما أسموه في الخارج، يندفع اندفاع الدماء فيصبح رد الفعل سريعًا، وكذا أنا رد فعلي كطفل.

صرخ الباشا:

– اقتلوه سريعًا.

نظرت غير مصدق ما أنا فيه، لماذا يريدون قتلي؟ ماذا فعلت لهم؟

سمعت شاهندة تقول:

– اهرب يا ابن الباشا، اهرب سريعًا.

أخذت كلماتها على أنها أمر لي، وأطلقت قدمي للريح.

كنت أعدو وأنا لا أفهم أي شيء، تتزايد ضربات قلبي وأنا غير موقن بما أنا فيه وبما أواجهه، لماذا يريدون قتل طفل صغير؟ هل شاهندة محرّمة على الكل لدرجة القتل؟ هل عقوبة قطف الثمار جزاؤها القتل؟

أسئلة كثيرة طرقت على بالي وقتها، وأنا أعدو وأحاول تفاديها، كان ورائي عشرات الحراس، كانوا

يطلقون النيران كمن يصيد غزالًا، كنت أقفزُ متفاديًا هذا الجحيم الممطر في رشاقة غير مسبوقة، لا وقت لألتقاط الأنفاس إذاً.

قفزت بداخل الشجيرات ثم غيَّرت وجهتي حتى أضللهم، وقد نجحتُ فالظلام كان قد عمَّ، وسيعتمدون على السمع فقط.

بخطوات صغيرة وخائفة وبلا نفس، عبرت خلف الشجيرات واحدة تلو الأخرى حتى تمكنت أخيرًا من الوصول إلى نقطة الصعود، تسلقت الشجرة المعهودة كالعادة، وخطفت ثمرة مانجو أخرى، وقفزت حتى تمسّكت بطرف السور ثانية، ونزلت وأنا أخطو بخطوات هادئة حتى لا أثير حفيظتهم ويرونني.

ثم تركت القصر وأنا لا أصدق أنني حي، تفحّصت نفسي حتى أتأكد أنني لم أجرح، وبكيت، ثم عدت إلى الشارع.

عندما وصلتُ إلى حي الخليفة، وجدت ما لم أتوقع.

كان الشارع زحامًا، زحامًا جدًّا، الحراس قد وصلوا إلى الحي الذي أقطن فيه بملابسهم السوداء والحمراء والطرابيش.

كل أهل الحي واقفين، الكل ثابتون، والحراس يأتون ويذهبون وكأنهم يبحثون عن شيء.

لقد وجدوني إذاً، يبدو أنه شكشك من وشى بي، يا له من صديق فاشل!

وقتها لم أدرِ ما على فعله، إذاً ما عدت سيجدونني وسيقتلونني، عليّ أن أختبئ إذاً.

كان متجر المعلم "إسلام نبيل" يقع على حدود الحي من الخارج، رجل طيب هو و يعرفني جيداً، ولكنه كان دائم الكلام، لا يصمت قط، أصلع هو يداري صلعته بالعمّة الصعيدية المعهودة، سمين يجر ترهلاته وراءه بلا كلل، كثير الضحك والابتسام.

كنت قد قررتُ أن أختبئ لديه لبرهة وأفهم منه ما يدور في الحارة، دخلتُ وكان يغط في النوم كعادته، يومه كان ٢٣ ساعة من النوم، وساعة متقطعة على مدار اليوم، يستيقظ ليرى ماذا هناك ثم ينام مجدداً، دخلتُ وهززته:

– عم إسلام، استيقظ أرجوك.

استيقظ هو بعفوية ثم قال من وراء نومه:

– من؟ من؟

نظر لي ثم ابتسم وقال:

– ابن الباشا، كيف حالك يا ولدي؟

قلت:

– ليس هذا وقته يا عم إسلام، ما الذي يحدث في الحارة؟

عبث في رأسه الأصلع قليلًا كأنه يتذكر، ثم قال:

– يبحثون عن لصٍّ ما يسمّى شاكرًا، يقولون إنه قد سرق شيئًا من القصر.

قل لي يا ابن الباشا:

– هل لدينا في الحي من يسمّى شاكرًا؟

قلت:

– وما أدراني يا عم إسلام؟

قال:

– إنه لاسم جميل فعلًا، أتذكر في عام ١٨٧٨ أنني قد قابلت خازندار تركيا، وكان يسمى شاكر أوغلو أو شيئًا من هذا القبيل، كنت هناك أتبضّع

لمتجري، وهناك حدثت لي قصة طريفة سأقصّها على يا ولدي، كنت..

قلت مقاطعًا:

– عم إسلام، ليس هذا وقته، أريد أن أختبئ عندك، وقل لي ماذا تبيع في هذا المحل؟ لطالما تساءلت.

قال:

– أبيع الأنتيكات يا ولدي.

قلت:

– أنتي كات؟ ماذا تعني؟

قال وهو يشير إليَّ:

– ادخل وسأريك.

ثم إنه نظر إلى الخارج كأنما يتفقّد الأجواء، ثم أغلق باب المتجر بالمفتاح، وأشعل شمعة صغيرة وقال:

– اتبعني.

بالطبع كما تعلمون، فالأحياء الفقيرة لا تدخلها الكهرباء.

تبعته وأنا أرى بعض الصور المعلّقة والحيوانات المحنّطة، وساورني الرعب، لربما الخارج آمن من هنا، قد تكون ميول الحاج إسلام طفولية مثلًا، أو يأكل لحم الأطفال.

وقفنا أمام باب صغير يؤدي إلى قبو واسع، قال لي:

– أتريد أن تعرف ما الذي أبيعه؟ وستتكتم عليّ السر يا ولدي؟

قلت:

– نعم سأحتفظ به، ولكن لماذا تأتمنني أنا خاصةً؟

قال:

– ليس لديّ أبناء يا بني، وأنا أحبُّك.

قلت في سري:

– ها قد بدأنا، سأدخل القبو ثم سيتحرّش بي.

ثم قلت:

– وأنت كوالدي يا معلّم إسلام.

أينعم كنت في السابعة، ولكني كنت أفهم الكثير، وكأني في السادسة عشرة، كنت ذكيًا جدًا، أو هكذا قالوا لي، ولربما أسموني ابن الباشا لهذا السبب.

قلت:

– معلّم إسلام، ماذا ستريني، فقد بدأتُ أخاف.

قال وهو يضحك:

– هاهاهاها اللّه يجازيك يا ابن الباشا أضحكتني، لا تخف لن أوذيك.

أخرج مفتاحًا كبيرًا ومفتاحًا صغيرًا، ثم أدرج المفتاح الكبير في مجرى يتوسّط الباب الخشبي، ثم عالج شيئًا ما على ضوء الشمعة.

كنت أنا مشغولًا بما أراه حولي، تماثيل صغيرة، ولوحات مخيفة، وبعض الحيوانات المحنّطة، هناك ذلك الصقر المحنّط، عيناه تلتمعان على ضوء الشمعة، مخيفتان فعلًا، إذا ما تحرّك شيء في الظلام الحالك هذا سيتوقّف قلبي إلى الأبد.

أخيرًا فتح المعلّم إسلام الباب، ثم أشار لي لأتبعه.

تبعته، كانت درجات تقود إلى الأسفل أكثر وأكثر، قبو كالمقبرة بمعنى الكلمة، ظللنا ننزل لأكثر من عشر دقائق كاملة، درج لا ينتهي أبداً، وما أثار حفيظتي أن الظلام يزداد، ونزولنا إلى العمق يزداد، لو قُتلت هنا فلن يجدني أحد أبداً.

كنتُ مرعوبًا جدّاً مما قد ينتظرني بالداخل، أقدّم خطوة وأؤَخِّر أخرى.

أخيراً انتهت الأدراج، ولكن الظلام حولي يوحي بالرعب، كانت هناك نسمة هواء مما يدل على مخرج ما، مكان غير معروف فعلًا،

قلت:

– هل نحن في جهنّم يا معلم إسلام؟

ضحك كثيراً جدّاً، ثم سعل وبصق على الأرض ثم قال:

– قلت لك لا تخف يا بني، خذ هذه الشمعة وحافظ عليها سأعود حالًا.

قلت وأنا أرتعد:

– هل ستتركني هنا يا معلّم؟ أرجوك أنا خائف جدّاً.

قال:

– قلت لك لا تخف يا ابن الباشا، سأتفقّد شيئًا ما، وآتي حالًا.

أخذت منه الشمعة، وأنا خائف جدًا، كنت أدعو اللّه أن يطمئن قلبي الصغير وقتها، فقد كان يدقّ بلا هوادة كأنها طبول الحرب في عهد الحروب الأولى.

لم أكن أرى أي شيء خلال دائرة الضوء هذه، مجرّد صورة مبهمة كالتي تخلقها النيران، دائرة ضيقة جدًا تخلق ظلالًا مرعبة توحي بكل أنواع الرعب في العالم.

أقسم أنني رأيتُ مائة ظلٍّ يتحرك، وكنت أخاف كثيرًا من سيرة الجان والغيلان كأي طفل في السابعة.

قرّرتُ أن أكسر حاجز الخوف، وأن أتفقّد المكان حولي قليلًا، سرتُ قليلًا بخطوات ثابتة أنظر حولي وأقتربُ من كل شيء، بالأحرى لم يكن هناك أي شيء اللهم إلا بعض الرسومات الغريبة على الحوائط.

كنتُ أُقرّب دائرة اللهب من الحائط وأتحسسه بيدي، رسومات جميلة كانت لأشخاص وحيوانات،ثم

ساحر الكتب

ارتطمت يدي بشيء ما، وقررتُ أن أوجّه اللهب تجاهه.

فجأة وجدت أمامي وجهًا بشريًا لجثّة بشريٍّ مُتوفّى، وجهًا مُقارِبًا لوجهي جدًا، صمتٌّ لحظة، وانسحب الدم من جسدي كله، ثم أسقطتُ الشمعة وصرختُ، صرختُ جدًّا، صرخت كثيراً، سمعت صوت خطوات مسرعة في اتجاهي، وصوت عم إسلام يقول:

– لا حول ولا قوه الا باللّه.

كنت أرتعدُ وأبكي وأصرخُ بلا هوادة، فأمسك بي المعلّم إسلام وقال لي بلهفة:

– ولدي، لا تخف، أنا هنا لا تخف يا حبيبي.

ثم ظلّ يصفعني صفعات برفقٍ ويهزني لأستفيق.

قلت وبصوت متحشرج:

– ج ج جثة، ت ت ت تنظر لي.

نظر المعلّم إسلام فابتسم وقال:

– لا تخف يا ابن الباشا، إنها مومياء.

لم أرد فأكمل:

– نحن بداخل مقبرة مليئة بالكنوز تخصّ جدي وجدك، هذا هو عملي وكنزي الخاص يا حبيبي.

قلت:

– أنت حانوتي؟

قال وهو يضحك:

– لالا هاهاهاها، سأريك.

ثم إنه أشعل فتيلًا ما فانتشرت النيران في كل اتجاه، فأنارت كل شيء.

نظرت ولم أصدّق عينيَّ.

أوانٍ ذهبية وصناديق وحُلي وتماثيل، ذهب في كل مكان، لم أُصدّق ما أرى، نظرت في اتجاه الجثة فوجدت بعض المومياوات مرصوصة بعناية بجانب بعضها البعض.

قلت:

– ما كل هذا يا معلّم إسلام؟

قال وهو يبصق:

– هذا سرّي وعملي الخاص، هذه المقبرة الفرعونية كانت تقبع تحت هذه الأرض لآلاف الأعوام، هذه الكنوز هي ما أعملُ به.

قلت:

– تتاجر في الآثار؟

قال:

– ليس بعد يا ولدي، أو بالأحرى ليس الآن، سأتاجر فيها عندما يحين الوقت.

قلت:

– ولكن يا عم إسلام إننا...

قال وهو يقاطعني:

– أنت ستعمل معي من الغد يا ابن الباشا، سأعلّمك كل شيء، سنعمل معًا، وسأعطيك خمسة عشر قرشًا في اليوم، ما رأيك؟

التمعت عيناي وقتها، إنه مبلغ ضخم لطفل، بل للناضجين أيضًا،

قلت وأنا أبتسم:

– موافق يا معلّم، ولكن لماذا أنا؟

قال:

– أنا ليس لديَّ أولاد، ولستُ متزوجًا، لن يرثني أحد من بعدي، وهناك سبب آخر لن أقوله لك، ستعرفه مع الزمن يا ولدي.

لم أفهم ما كان يرمي إليه وقتها، ولكني كنت أفكّر في الأموال التي سأجنيها فقط.

شعرت بالاختناق، فطلبت من المعلّم إسلام أن أخرج على أن أعود له في الغد، فوافق على الفور، ثم أطفأ المشاعل كلها، وتذكَّر شيئًا، فالتفتَ إليَّ وقال في حدةٍ:

– الأمانة يا بني، الأمانة أهم شيء.

هززتُ رأسي موافقًا، فربّت على رأسي بدوره ثم أشار إلى الدرج، وخرجنا.

قبل أن أخرجُ أعطاني خمسة قروش وقال لي:

– هذه لك.

قلت:

– ولكني ما زلتُ لم أعمل عندك بعد.

قال:

– إنها مكافأة صغيرة على أمانتك يا بني، فأنت لم تسرق شيئًا بالرغم مما رأيت، وستكون خلفي في القريب العاجل.

ابتسمت بدوري وحييتُه وركضت في اتجاه المنزل.

كانت ساعتان قد مرّتا منذ خروجي من القصر، وكان الظلام قد خيّم على الحي إلا من بعض المشاعل التي تُنير الشوارع في الحي، فكما تعلمون الكهرباء للباشاوات والأحياء الراقية وبداخل المنازل فقط.

كان قد رحل الحرس، وسارت الحياة طبيعية جداً، ولكني كنت أسير بهدوء عسى أن يجدني أحد ما.

وصلت المنزل وأنا أحمد اللّه أن اليوم قد مرّ بسلام، ثم طرقت بابنا الخشبي عدّة طرقات،فتحت لي أمي، وكانت ترتدي السواد، وصوت المذياع يتغنّى بصوت القرآن العذب، أجواء جنائزية جداً.

وكان المنزل من خلفها مقلوبًا رأسًا على عقب، كأن هناك دبّا بريّا قد عبث بالمكان، وكانت أمي تبكي، ما إن رأتني حتى فاضت عيناها بالدموع واحتضنتني كثيرًا جدّا، وكانت تبكي بحرقة.

قلت:

– أنا بخير يا أمي، ماذا هناك؟

وهي كانت تردّد:

– شاكر، حبيبي يا شاكر، آه يا شاكر، أنت بخير الحمد للّه، لم أكن أفهم شيئًا من كل ذلك، ولكني كنتُ سعيداً بفعلتها هذه.

فجأة، وبدون سابق إنذار توقفت كأنها قد تذكرت شيئًا ما، ثم رفعت حذاءها وهي تصرخ:

– أين كنت يا ابن الكلب للآن؟ ماذا كنت تفعل عند القصر؟

يا له من تحوّل مفاجئ.

قلت وأنا أتفادى ضرباتها:

– واللّه يا أمي كنت ألعب، إنه شكشك الذي..

قالت:

– تقطع علاقتك بهؤلاء الأطفال، هل تفهم؟

قلت:

– حاضر، حاضر يا أمي.

قالت وهي تصرخ:

– لقد قال الحراس إنهم قد قتلوك، ماذا فعلت يا كلب؟

لم أرد، وكانت هي تضرب بغلٍّ شديد، هدأت ثم اقتربت مني وأغلقت الباب وراءها وهي تسحبني للداخل.

قالت لي في هدوء:

– ستحكي لي كل شيء، وسأسامحك، اتفقنا؟

صمت ثم وافقتها، جلسنا وسرتُ أحكي كل شيء عن القفز والثمرة وشاهندة، ثم أعطيتها الثمرة التي احتفظتُ بها، ولم أقص عليها أي شيء عن المعلّم إسلام، وقلت:

– أرجوكِ يا أمي لا تغضبي.

قالت:

– شاكر، أرجوك، لا تكرّرها، أنت لا تفهم، أنت حتى لا تعرف لماذا طاردوك، ومن هذا الباشا الذي كان يريد قتلك.

قلت:

– من هو يا أمي؟

قالت:

– لن أقول لك الآن، ستفهم بعد حين، والآن، فلتغتسل وتغيّر ملابسك، وتنم، ولتنس الخروج الأيام المُقبلة، لن تذهب إلى الكتّاب ثانية، ستظل في المنزل إلى أن آذن لك.

قلت:

– ولكن هذا ليس عدلًا يا أمي، أرجوكِ.

قالت:

– ستسمع الكلام، وإلا أقسم باللّه سأقتُلك أنا بالضرب.

قلت في رعب:

– ولكن يا أمي، سأبدأ عمل جديد من الغد.

قالت:

– أي عمل يا شاكر؟

قلت:

– عند دكّان المعلّم إسلام نبيل.

قالت:

– هذا المجنون؟ لا، لن أسمح لك بالعمل عنده.

قلت:

– يا أمي سيعطيني خمسة عشر قرشًا في الليلة.

قالت:

– وحتى وإن أعطاك جنيه في اليوم، لن أقبل أن تخرج ثانية، ماذا إن أدركك الحرس؟ ماذا سأستفيد منك وأنت جثّة هامدة،

قلت:

– ولكن..

قالت:

– لا تتكلم ثانية، اذهب كما قلت لك، انتهى الأمر.

نفخت في ضيقٍ وأنا أشتم وأسب في سري، ثم اتّجهت إلى دورة المياه، واستعددت للنوم وأنا لا أفهم أي شيء.

لماذا يعاملونني بهذا الغموض؟

قبل أن أرحل، أخذت منها ثمرة المانجو، وقد قرّرتُ الاحتفاظ بها إلى الأبد.

* * *

٦

عام ٢٠٠٥ ليلة رأس السنة – المحروسة

أعوام كثيرة مرّت سريعًا منذ ذلك اليوم الغريب، أعوام سريعة بلا أي أحداث تُذكر، أدركتُ فجأة أنني شاب، إن شاربي ولحيتي تنموان بلا توقفٍ، وأن عليّ أن أزيلهما أسبوعيًا، أدركتُ فجأة أن الفتيات جميلات جدًا، أن منحنياتهم مثيرة، أدركتُ أنني أنظر إلى تكتّلات أجسامهن بلا توقُّف، نظرات ليست بالبريئة أبدًا.

أدركتُ فجأة أنني رجل وسيم، أنني طويل جدًا، بشرتي بيضاء جدًا، وسيم جدًا، وأن الفتيات يُعجبن بي، ويبتسمن عند مروري بجوارهن، كان عمري قد تخطى العشرين عامًا بأيام، وكان وجهي غريبًا على أهلي وأبناء ذوي من الشباب، فكل من أعرفهم سمر البشرة، عريضو الجبهة، وكنت أنا الأبيض الوحيد بينهم، حتى أمي كانت سمراء عادية الملامح، جنوبية الملامح جدًا، دائمًا ما ترتدي الجلباب،وتربط رأسها وتضع اليشمك تمامًا كما في لوحات المستشرقين، لوحة فنية تسير في تؤدة في الحارات والأزقّة، لا ينقصها إلا إمضاء الفنان الذي قرر رسمها، أما أنا فكنت مختلفًا تمامًا، أبيض الوجه ذو عينين حادتين فاتحي اللون، أدركتُ فجأة أنني لا

أشبه صور أبي المعلّقة على جدران بيتنا المتواضع، ولا أُشبه أمي أيضًا، وكنتُ حين أسألها تقول:

– العرق يمد لسابع جد يا ولدي.

وكأن هذا الرد يكفيني، على العموم كففتُ عن التساؤل مع مرور الوقت، هذا وجهي، وأنا أُحبّه، فليذهب أيُّ شيءٍ إلى الجحيم بعدها، كما كنت أقول كنتُ وسيمًا جدًا بعكس أبناء الحي الذي أقطن فيه، وكنت أزيد فوق شكلي ملابسي الأنيقة دائمًا وأبدًا، كنتُ أهتمُّ بتناسُق الألوان جدًا، بدلة نظيفة سوداء تبرز بياض وجهي، قميص أبيض، طربوش أحمر جدًا، وشارب صغير كما كان حال الموضة وقتها.

أسيرُ في الحارة فتبتسم الفتيات أينما ذهبت، ويا له من إحساس رائع!غيري من الفتيان يتمنون أن تراهم الفتيات أو تلاحظن وجودهم حتى، ولهذا سار لي الكثير من الأصدقاء بالرغم من أنني لم أتعلّم أو أدخل البكالوريا أو الجامعة، فكما يعلم الكل، الجامعات لأبناء الباشاوات والبكاوات فقط، منذ أن أسسها سعد باشا زغلول، ونادى بها قاسم بك أمين، وهي مقتصرة على الباشاوات فقط، أما نحن فكان شاغلنا الوحيد هي خدمة الباشاوات في قصورهم وأراضيهم، كنت أتمنى شيئًا مثل هذا

في حياتي أيضًا، ولكن منذ حادثة القصر لم أقترب من القصر أو أعمل به، أنا لم أنسَ قط؟

ولم أنسَ الملاك، شاهندة، آه يا إله الكون! لكم كنتُ أحبّها! ملاك أبيض هي، مُهرة، شعر ذهبي وبياض، لم يخلق مثلها شيئًا جَلّ جلاله، كنت دائمًا ما أمر بالقرب من القصر بين الحين والآخر طوال أعوام عمري لربما خرجتُ لأراها، وكنتُ دائمًا ما أحمل ثمرة المانجو معي عسى أن تتذكرني، ثمرة المانجو هذه هي آخر ما تبقّى من ذكرى ذلك اليوم، وكانت من عاداتي أن أمر بجوار القصر دون أن يراني أحد، أنتظر بعض الدقائق عسى أن تخرج فأراها، ثم عندما أفقِدُ الأمل أعودُ أدراجي.

أربعة عشر عامًا ولم أضيّع يومًا بدون أن أمر بجوار القصر، أربعة عشر عامًا لم أرها فيها، ولكنني كنت أعيشُ على أمل أن أراها يومًا، هل هذا حب؟ وكيف عرفت الحب وأعوامي لم تتجاوز السابعة وقتها؟

حسنًا، خرجت من منزلي بعدما قبّلتُ يد أمي كالعادة في الطريق إلى عملي.

وافقت أمي على مضضٍ بعد حادثة القصر أن أعمل في دكّان عم إسلام بعدما جاء بنفسه يترجاها ويَعِدُها بالمحافظة عليَّ من كل سوء، وافقتُ

وهي تعلم أن دكّانة بعيد عن القصر، ولو قليلًا، بعيداً عن الحراس قليلًا، بعيداً عن الخطر قليلًا.

كان العمل مع المعلّم إسلام مرهقًا بعض الشيء، ولكنّني تعلّمتُ منه كل شيء، تعلّمتُ كيف أنظّف المومياوات جيداً، تعلّمت كيف أتواصل مع مبتغيها، تعلّمت أن الحياة تنتهي في مقبرة لا قيمة لها، تعلّمت قيمة الذهب، تعلّمت الكثير.

لم أنسَ شاهندة يوم، كنتُ أنّظّف التماثيل فأرى وجهها يلتمع أمامي، أرسمها بالطبشور على جدران المقبرة، في حجرتي، أنقلُ المومياوات فأراها تقبع بجانبها، أراها بين الحُلي، بين الجواهر، بين شطائر الفول، أراها في منامي، في رائحة عطري الرخيص، بين طرابيشي، بين السحب في يوم خريفي، أراها في كل ثمرة مانجو، نعم، ثمرة المانجو التي تعلّقت بقلبي منذ لمستها يدها أول مرة، تلك الفاكهة الغالية القديمة أو كما أسماها العرب "الأنبج" التي لا تراها أبداً في الأحياء الفقيرة، فهي حكر على الباشاوات فقط، كل جميل وغالٍ هو حكر عليهم، حتى أحلامنا هي ملك لهم فقط.

ثمرة المانجو التي دخلت بها الفتاة قلبي، يا ترى كيف حالها؟ كيف سار وجهها؟ كيف تشكّلت مفاتنها؟ لم ولن أعرف مطلقاً.

كانت حياتي تسير على خطى رتيبة بين عمل ولهو ومنزل، الصباح للعمل وزياراتي لسور القصر، الظهيرة للهو، والليل لأمي وللنوم.

كانت الليلة هي ليلة رأس السنة، وكما هي العادة ينظّم القصر حفلًا كبيرًا يضمُّ أكثر الباشاوات حجمًا وثقلًا في البلد كلها، ثم يأتي الحرس ليأخذوا الكثير من أهل الحي والأحياء المجاورة للخدمة في القصر، يأتون لنا بملابس وعطور حتى لا نلوث الباشاوات بمناظرنا المعتادة.

الشباب منّا يقدّمون المشروبات في البهو الواسع، والبنات يقدّمونها في الحرملك، أما كبار السن من يقوون على العمل فيعملون في التنظيف وخلافه، وممنوع منعًا باتًا الاختلاط أو الحديث مع الباشاوات، يعتبرونها جريمة أخلاقية أو تدنيس، حتى إن بعض الشيوخ قد أفتوا بعدم الاقتراب وإلا غضب منا اللّه، بل وجدوا في النصوص الدينية ما ينهى عن هذا، أتصدق يا جناب القائم؟ أظنّك لم تتساءل قط، فأنت وُلدت باشا، وستظلّ باشا، وكأن والدك قد دعا الخالق ألا تخرج عن هذه الطبقة أبدًا.

قال القائم:

– التزم بسياق الحديث يا شاكر، وإلا كمّمتُ فمك للأبد، وتعرف أنني سأفعلها.

قلت وأنا أنظر إلى الأعلى:

– لن يسمح لك.

قال:

– وما أراك بما يسمح اللّه يا تافه؟

قلت:

– حاشا للّه، أنا أتحدّث عن ولي نعمتك، جلالة الملك.

صمت قليلًا وكأنه يبحث عن ردٍّ مناسب، فلّما لم يجد أشار إليّ لأكمل.

قلت:

– يوم رأس السنة هو يوم من أتعس الأيام التي تمرُّ على هذه الأحياء، الحاشية الملكية والحكومة يتعاملون مع ذلك اليوم على أنه خدمة عسكرية لنا، ولا يكترثون أبداً ما إذا كنا نوافق أم نرفض، الحرس دائمًا أبداً مدججون بالسلاح، يسوقوننا كمن سيُباع في سوق النخاسة بالقروش.

أما الحقوقيون، فحدّث ولا حرج، يتغاضون عن كلّ هذا وكأنه لا شيء يحدث يومها، ربما لأنهم

فاسدون، أو مرعوبون، أو مرتشون، أو مجرد مدعوين إلى الحفل.

حفل مليء بكل ما هو حرام، بكل ما هو غير قانوني، إذا كنت شاذًا فستجد من تفرغ معه شهوتك، إذا كنت ماسوشيًا فستجد من تهينك أمام الجمع، حفل لا ينقصه إلا إبليس يعتلي العرش في سعادة بالغة، المهم، صباح ذلك اليوم كنت أنقّبُ أنا والمعلّم إسلام في بقيّة المقبرة كما هي العادة، فبين التنظيف والتسهيل والبيع والتسجيل، هناك ساعتان مخصصتان للتنقيب عن المزيد من الآثار والكنوز، أعوام كثيرة ننقب لنجد المزيد وكأن المقبرة بحر يصبُّ فيه نهر لا يفرغ أبدًا.

ذلك اليوم المشئوم وجدنا بعض الحلي المدفونة بعناية إلى جانب بعض التماثيل الصغيرة الرخامية، كل هذا جميل، ما شدّ انتباهي في تلك الحلي، هي حلية على هيئة عقد، ذهبي كان بسيطًا في صناعته، وتتدلّى منه جوهرة برتقالية اللون تميل للاخضرار، كانت تلمع على ضوء النيران، ما شدّ انتباهي وقتها أن الجوهرة تشبه ثمرة المانجو كثيرًا، نفس الشكل تقريبًا، بيضاوية الشكل كبيرة، كانت جميلة حقًا.

عندما رأيتها، التمعت عيناي وتساءلت: لماذا هذا اليوم بالذات؟

جاءت على بالي فكرة.

ولكن كيف سأطلبها من المعلّم؟ لا لن أسرق بالطبع، المعلّم إسلام كأبي ولن أسرقه أبدًا.

أخ، يا للشيطان عندما يصور لنا المستقبل القريب ورديًّا حتى نتجاوز ونخطئ! يا له من شرير آثم! ألا لعنة اللّه عليه.

قرّرتُ أن أصارحه وليكن ما يكون. تحشرج صوتي قليلًا ثم قلت:

– معلّم إسلام، هل تعتبرني ولدك فعلًا؟

قال:

– يااااه يا بني، أبعد كل هذه السنوات تتساءل؟ بالطبع لا.

اندهشت ثم صُدمت للحظة فلحق بي وهو يضحك وقال:

– أمزح..يا بني أمزح، بالطبع أنت ولدي الذي لم أنجبه، بل أغلى، فأنت تعمل معي أيضًا.

تنفّست الصعداء وقلت:

– وأنا كمان أُحبك يا معلّمي.

ثم ابتسمت في تؤدة وشغلت نفسي بالتنظيف.

قال لي:

– ماذا تريد يا بني؟ صارحني أعرف أنك تريدُ شيئًا ما.

تردّدت كثيرًا ثم قلت:

– في الحقيقة يا معلّم أريد، أريد.

قال:

– ماذا تريد سريعًا، قل ولا تخف.

قلت:

– أريد هذا العقد، ثم أشرتُ إلى عقد المانجو.

نظر لي المعلّم وقال:

– لم أكن أدري أنك طمّاع يا ابن الباشا.

قلت:

– حاشا للّه يا معلّم، أنا فقط أريده لأنني أعجبت به.

نظر إلى عينيّ فتحاشيتُ نظراته، فقال:

– أنا والدك يا شاكر يا بني، احكِ لي لماذا تريده وسأستمع لك.

صمتّ قليلًا ثم قلت:

– حسنًا، آسف يا معلّم، لن أنظر إلى الشغل مُجددًا.

بصق المعلّم ثم اقترب مني، وقال:

– ماذا بداخلك يا بني، أتحتاج بعض الأموال؟

قلت:

– لا لا، لا شيء.

قال:

– حسنًا يا بني، اذهب وائت لنا ببعض الشاي، وسنتحدّث.

وافقتُه وتركت ما كنتُ أفعله، وفعلت كما قال.

ارتشف المعلّم رشفةً وتنهّد في راحة، ثم قال:

– فنّان أنت في صُنع الشاي يا بني، والآن، ستقصّ عليّ كل شيء، والعقد سيكون لك.

لا أعلم لماذا صارحته وقتها بكل شيء،بالحادثة والثمرة، والهروب وكل شيء.

قال وهو مندهش:

– كل هذا حدث ليلتها ولم تحكِ لي؟ وتحمّلتَ كل هذا يا شاكر؟

قلت:

– صحيح يا معلّم.

قال:

– ولماذا إذاً تريد العقد؟

قلت:

– أريد، أريد أن أحضرُ الحفل وأهديه لها علّها تتذكرُني.

قال المعلم وقد بخ الشاي على الأرض:

– أجُننت يا شاكر؟ تريد أن تقتل؟ ألا تدري ما عقوبة التدنيس يا ولدي؟ إعدام فوري.

قلت:

– اللّه قادر على كل شيء يا معلّم، ثم إن الكل سوف يتنكّر، لديّ خطة لا تقلق.

قال:

– تعلم يا بني؟ وأنا في سنّك هذا، كنت أُحب فتاة حبّا جمّا، كانت من القصر أيضًا، هل تعلم ما الذي حدث عندما علم والدها الباشا أنني فقط تكلّمت معها؟

قلت:

– ماذا يا معلّم؟

قال:

– ألم تتساءل.. لماذا عيني اليسرى مفقوءة؟

لم أرد فقال:

– اقتلعوها يا بني، اقتلعوا عيني لأني نظرتُ لها وكلّمتها، ولن أسمحَ لك بالذهاب لتُقتل، لن

يحميك أحد.

قلت:

– أرجوك يا معلمي، أنا أحب، أنا أشعر أنني أقتل كل يوم فعلًا، أرجوك اسمح لي بهذه المخاطرة.

تنهد فبصق فقال:

– امم، حسنًا، ولكن عِدني بأنك ستحافظ على حياتك لأجلي.

قلت:

– أعدُك.

أخذ العقد وأعطاني إياه، ثم ربت على كتفي، وقال:

– أرجوك يا بني، عِشْ لأجلي، حافظ على حياتك لي، لن أتحمّل فقدانك.

ابتسمت وقلت:

– أعِدُك يا معلّم.

قال:

– هيا إذاً انصرف، سأنتظرك لحين عودتك ليلًا.

ابتسمت ثانية، ثم حيّيته وذهبتُ.

كنت فرحًا جدًا بأخذي للعقد، أخيرًا سأراها، سأهديها أغلى ما وجدتُ في حياتي، سأصارحها بكل شيء.

ولكن الآن عليّ أن أخطّط لدخولي، فإذا دخلت مثل الخدم سأضمن دخولي، ولكن لن أضمن وصولي لها.

فكّرت قليلًا ثم تذكرت شيئًا.

ميشو وديدي، صديقي وخطيبته، سبيلي للدخول إلي القصر.

ميشو "أو محمد بن فؤاد العايق" يعمل في محل الأزياء التنكّرية في وسط المدينة، صديقي النحيف، سيوفّر لي الزي التنكّري لدخولي إلى القصر، وديدي "أو هدى بنت عم سعد الغفير" حارس البوابة الخلفية للقصر، ستقنع أباها بمروري.

هما سبيلي للدخول إذًا، يا لي من عبقري!

ذهبتُ إلى ميشو متجره أبحثُ عنه فلم أجده هناك، سألت الخواجة سامي صاحب المحل فقال:

– شوف حبيبي، ميشو قال لي إنه سيقابل ديدي بمناسبة الكريسماس حبيبي، ستجده على النيل حبيبي.

ثم ضحك بابتسامة الخواجات الصفراء، شكرته وذهبت.

هل هذا وقت حبٍّ وخروج يا غبي؟ قلتها لنفسي.

هُرعت أبحثُ عنه في كل مكان فيه نيل فلم أجده، بحثت كثيراً،

ثم تذكرت ثانية، هو دائماً ما يخرج معها في ذلك المقهى في وسط المدينة، حيث إنه أرخص مقهى في مصر، إن لم يكن في العالم.

عدتُ أدراجي إلى وسط المدينة ودخلتُ المقهى، فإذ به يجلس مع خطيبته، كان يلقي نكاته المعهودة وهي تضحك في سماجة، اثنان من المغرمين كالعادة.

هُرعت له وكان يقول لها ويضحك ثم ضرب الأمباشي وقال:

– يا بيه معييش غير خمس قروش بتوع السبارس " هاهاهاها.

وكانت تضحك بدورها.

ما هذه السخافة؟

أمسكته من ياقته لأسمعه يسبّني ويقول:

– هل جننت يا ابن الباشا؟ ماذا تريد؟

ابتسمتُ لديدي مجاملةً واعتذرت منها ثم جررتُه أمامي وأنا أقول:

– أريدك في كلمة، سريعًا ليس هناك وقت.

جاء معي فخرجنا.

قال لي:

– ماذا دهاك يا ابن الباشا؟ لماذا تصرّ على إحراجي أمام خطيبتي؟ ألم تتعظ منذ اللقاء الأخير؟

قلت:

– أي لقاء؟

قال: ولا تتذكر أيضًا؟ – بغضب شديد – عندما جررتني أمامها منذ عام ونيف.

قلت وأنا أبتسم:

– آآه تذكرت، ليس هذا وقته يا ميشو، أريدك في شيء آخر.

قال:

– وأنا لا أريدك يا أخي، اتركني لحالي.

قلت وأنا أجذبه من كمّي قميصه:

– يا أخي لا تختبر صبري واسمعني، أريد أن أدخل الحفل.

قال:

– وأي حفل هذا؟

قلت:

– حفل رأس السنة، في القصر.

قال في غضب:

– ثانية؟ أتريد أن تُقتل هذه المرة؟

قلت:

– أتوسل إليك، إنها فرصتي، أنت تعرف أني أحبّ شاهندة وسأو..

قاطعني قائلًا:

– انسها باللّه عليك، ربما تزوجت أحد الأمراء أو شيء من هذا القبيل، هل ستظل تحب فتاة رأيتها في السابعة يا مجنون؟

قلت:

– بين الحب والرحيل لحظه يا صديقي.

قال في سخرية:

– وأصبحتَ فيلسوفًا أيضًا، هأو، قالها باستهزاء.

قلت:

– ميشو، أنا أحتاج إليك، وهذا هو أول طلب أطلبه منك وسأ..

قاطعني ثانية:

– حسنًا، حسنًا، حظك سعيد، فأنا كنت ذاهبًا إلى الحفل مع ديدي، وسأُدخلك معنا، أعطني بعض الوقت لأتدبّر الأمر.

قلت:

– ليس هناك وقت، أرجوك.

قال وهو يتنهّد:

– حسنًا يا ابن الباشا، ساعة زمن فقط وأجدك أمام متجر الخواجة.

وافقته وقبّلته على خده فأبعدني وهو يقول:

– لا أحبُّ الحركة هذه.

ثم عدّل من وضع طربوشه وذهب.

نظرت لهما نظرة أخيرة، يا لها من علاقة مقززة! أي حب لزج هذا!

ساعة مرت عليَّ وأنا بين حيرة وذهاب، متوتر كنت، أفكّر بلا عقل عما سيحدث، يصور لي الشيطان كل السبل التي قد تنهي حياتي فيتدفّق الدم إلى قلبي بعنف، لا أدري ماذا أفعل، فقط يطمئن قلبي عندما أتذكر وجهها، أضغطُ على العقد بعنفٍ وأنا أتخيَّلُ ابتسامتها، لكم هي ثمينة هذه الابتسامة! تستحق فعلًا.

كنت أقفُ أمام المتجر أنتظرُ ميشو بتوتر، فعلتُ كل شيء لأهدّئ بالي ولم أستطع، أربعة أكواب من القصب المثلج لم تُهدّئ سخونة جسدي، لا شيء يقدر أبدًا.

رأيته قادمًا فتهلل وجهي، صديقي النحيل، تذكرة دخولي إلى باب القصر.

وقف ونظر إليّ بصمت ثم قال:

– بسببك تركتُ خطيبتي، ولم أوصلها إلى حارتها، يا لك من تافه! ثم أشعل لفافة تبغ.

قلت:

– ماذا سنفعل الآن يا ميشو؟

قال:

– انتظر وسترى، ستدخل مثل أي باشا، فقط ثق بي.

* * *

٧

أجراس الكنائس حولنا كانت تدقُّ بلا توقّف، أبواق المساجد أيضًا كانت تؤذن بحرقة بالغة، يعلنون جميعًا بمرسوم ملكي عام جديد.

عام ليس كالعام الذي أعدم فيه الضباط، ولا عام إعدام القضاة، ولا عام طائرة برج التجارة العالمي، ولا عام الحرب العراقية وتصدي المملكة المصرية له.

كان عامًا يشي بالخير فعلًا، الكل في ذلك اليوم يغدو فرحًا بقدوم عام ميلادي جديد ما عدا الخدم بالطبع، أمطار غزيرة تجتاح عواصم المملكة، أشجار الأرز تزين المحال والشوارع، صور الملك المزينة تعلّق في كل مكان، ثمثال المؤسس محمد علي ينير ميدان التحرير كما لو كان هو شمسها، الكثير من السياح يجتمعون كل عام في مصر ليشاهدوا عرض الألعاب النارية المشهورة به وقتها، ألعاب نارية تشكّل كلمات وصورًا من ابتكار بعض مهندسي المؤثرات البصرية في المملكة.

تارة ينفجر صاروخ فيتشكّل اسم النبي عليه السلام، وتارة ينفجر صاروخ آخر فيظهر المسيح في السماء يحمل صليبه، وتارة ينفجر آخر فنرى إبراهيم باشا يُشير إلى شيء ما، وهكذا.

في ذلك اليوم تكون عطايا القصر إلى الشعب بلا حدود، كل باشا يخرج قروشه وجنيهاته ليلقيها إلى الجماهير المحتشدة في الميدان فيصرخ الجميع بانتشاء مبالغ فيه.

باشا آخر يُقرِّر توزيع البيرة على الكل، وذلك البك يوزع الجنيهات الذهبية على الجميع.

الكل فَرِحٌ بقدوم العام الجديد، الكل يترقّب، والكل يهتف باسم الملك.

أما عن الأمراء، فهم يلهون كما لو كان هذا آخر يوم لكوكب الأرض.

جنس وخمر وغناء، يجوبون الشوارع والحوانيت بسياراتهم الفارهة، الكل يختبئ منهم عند مرور سياراتهم في ذلك الوقت خوفًا من اعتراض طريقهم، وهم إذا ما وقعت فريسة بينهم يأكلونها بالمعنى الحرفي للكلمة.

قد يقتل، قد يغتصب، قد يحرق حيّا، وقد يسكر معهم ويرحل، هؤلاء لا قانون يردعهم، فهم فوق القانون، دستوريّا هم فعلًا فوق القانون، كل مواد القانون يستثنى منها العائلة المالكة فقط، كل العقوبات التي وضعها الدستوريون قد استثنوا منها "العائلة المالكة حتى الدرجة الخامسة"، هذا

بالطبع ليس عدلًا أبداً، ولكن حاول أن تعترض، وستنال عقاب الضباط الأحرار أو الخونة كما أسموهم، في ذلك العام انتشر الهاتف ذو الكاميرا بين الباشاوات والأمراء، وكان حكرًا عليهم فقط، هو غالٍ بالطبع؛ ولهذا احتكروه لأنفسهم، فكان من السهل أن تجدهم يغتصبون امرأة مثلًا ويصورونها، كان نوعًا من الفخر بينهم، يتفاخرون بعدد المقاطع المصورة لعملية سرقة أو قتل أو اغتصاب، لا أعلم كيف ولماذا استباحونا كأننا أغنام؟ من أعطاهم الحق في استعبادنا؟ لا أعرف، بشكل عام، كانت المملكة تجن في ذلك اليوم، أما عن القصر الملكي فحدّث ولا حرج، وكر لممارسة كل ما هو ممنوع ومرغوب، جنس وشذوذ ومخدرات وخمور وحتى القمار، جماعات متفرّقة تمارس ما يحلو لهم، أو هكذا كنا نسمع عنهم من الخدم الذين خدموا في حفلاتهم يومًا ما، اقتربت من البوابة الخلفية للقصر ومعي ميشو وديدي، وكنا نرتدي الملابس التنكّرية كما اتّفق، في حفل رأس السنة تتنوع الملابس التنكّرية بين زي يمثّل بابا نويل وملابس عسكرية لإحياء ذكرى الانقلاب الفاشل، وملابس الجان والأقزام اقتداءً بحفلات الغرب، والعبايات واليشمك للنساء، وغيرها، كنتُ أنا أرتدي الزي العسكري برتبة بكباشي واصطحبت معي سترة جلدية سوداء فالأمطار كانت غزيرة في ذلك اليوم، وميشو النحيل ارتدى زيَّ الأقزام

الخضراء مع أذنين كبيرتين، أما ديدي فارتدت فستانًا من الحقبة البائدة، وارتدينا جميعًا الأقنعة، اقتربنا من البوابة الخلفية التي تزينت باللمبات الكهربائية وأشجار الكريسماس المثلّثة الشكل في كل ركن خارج القصر، والمزينة بالنياشين وصور الملك في الأنحاء.

نظر لي ميشو ثم عدّل من وضع الكتّافات على كتفي المرصّعتين بالتيجان والنجوم والنياشين ثم قال:

– تُشبه ضباط الجيش جدًا يا ابن الباشا، ابن باشا فعلًا.

قلت وأنا أبتسم:

– فعلًا يا ميشو؟ وأنت تُشبه الأقزام أيضًا، أرى أن ترتحل إلى القطب الشمالي وتبدأ العمل مع بابا نويل.

وكزتني ديدي التي سمعت مزاحي وقالت:

– لا تقل هذا، "تفّ من بقّك"، ميشو سيد الرجالة.

ابتسما لبعضهما البعض، ثم نظرا لي نظرة تشفٍّ، كنت أتمنى وقتها أن تنشق الأرض وتبلعني،

فميشو كان ...

جاء صوت القائم مقام قائلًا:

– وميشو هذا كان رجلًا معك وتحبّه وله مواقف جميلة مع الكل صحيح؟

ثم تغيّرت نبرة صوته قائلًا:

– هل تريدني أن أقتل نفسي الآن؟ أنت تقصّ علينا جرائمك أم تقصّ علينا قصّة أمك؟

نظرت له وصرخت بجنون:

– لا هي ليست قصّة أمي، ولكنّها ستكون قصّة أمك أنت إن لم تتركني أكمل في هدوء.

قال:

– يا ابن ال...

ظهر الأمير راسخ من بين الجمع وهو يقول متسائلا:

– ما هذا؟ ما الذي يحدث؟

ثم نظر لي وصرخ قائلًا:

– لماذا تقيّدون شاكر بك هكذا؟ أجننتم يا باشاوات؟

قال القائم مقام:

– العفو يا جناب الأمير، القصة يطول شرحها.

تلعثم في الكلام وهو يقول:

– شاكر بك هو، إنه، وجدنا رستم باشا.

صرخ الأمير راسخ قائلًا:

– هذا جنون، جنون حتمًا، أظن أن الخمر قد لحست لكم عقولكم، أهي لعبة سادية ما؟

ثم نادى الحرس قائلًا:

– يا حراس، فُكّوا وثاقه، إنه...

هنا ظهر صوت الملك من الأعلى قائلًا:

– راسخ، شاكر بك هو ثمرة المانجو.

التفت راسخ بك وهو فاتح فاه غير مصدّق هذا الجنون.

فأكمل الملك:

– نعم إنه هو السفّاح، وقد اعترف بهذا، وأنا قد فرغت من كل هذا الهراء، وأريد الراحة قليلًا، فالفجر قد اقترب، أكمل مكاني يا راسخ باشا.

لم يكن راسخ باشا قد فهم بعد ما حدث، يحاول الاستيعاب حتى إنه قد فرك عينيه كثيرًا كأنه يحاول أن يتأكد أن الأمر حقيقي فعلًا.

ترك الملك عرشه وصعد إلى العلية وهو غير مبالٍ أبدًا، وكأن القضية قد اكتملت.

أما الأمير راسخ، فقد اقترب مني وفمه ما زال مفتوحًا على مصراعيه.

أما أنا:

– هاهاهاهوووهيهي.

كنتُ أضحك بجنون، أضحك وأنا أتشفّى في كل شخص فيهم، أضحك بلا اكتراث.

صرخ راسخ:

– أنت؟ أنت يا بك؟ بعدما أدخلناك قصرنا وعاملناك معاملة الملوك، أنت؟

ثم سحبني من ياقة قميصي وصرخ:

– أنت؟

سحبني حتى سقطت على ركبتي وأنا مُقيد اليدين، وكنت مستمرًّا في الضحك كالمجنون.

قلت:

– نعم أنا.

صفعني على وجهي وكرَّر سؤاله:

– أنت؟

قلت وأنا ابصق دماء وأُخرج له لساني:

– قلت نعم، أنا، أنا، أناااا.

أمسك القائم مقام يد الأمير محاولًا تهدئته وقال:

– اسمح لي يا جناب الأمير، نحن نتولّى التحقيق وهو يعترف بكل شيء فخامتك، أعدك بأنني سأخرج منه بكل شيء، وسيُعدم بقسوة، بقسوة يا جناب الأمير.

تركني الأمير وعدّل من وضع طربوشه الأحمر وأعطاني ظهره، وبحركة مسرحية صرخ:

– أخرج لأقضي أمرًا ما في ساعتين، وأعود لأرى هذا.

قالها وهو يشير لي..

– لأرى هذا.

ثم صعد على الدرج وجلس على عرش الملك، وأشار للقائم مقام ليُكمل عمله.

اقتربت سيدة صغيرة السن من القائم مقام وقالت:

– أتسمح لي بكلّمة يا جناب الباشا؟

أشار لها فقالت بصوت جهوري:

– أرجوكم ألا تتهاونوا معه،لقد هدّد هذا التافه أزواجنا وإخوتنا، وقتل منهم ما قتل، ذلك الفلّاح علينا إعدامه، وسأظل هنا حتى أرى إعدامه بأعيننا، أرجوك يا سيدي دعه يقّص كل شيء.

تمتم الجمع:

– موافقون.

سألها القائم مقام قائلًا:

– أتسمحين لي أن أعرف اسم حضرتك؟

قالت:

– رفقة هانم، صاحبة توكيل السيارات يا باشا.

قال وهو ينحني:

– غنية عن التعريف يا جناب الهانم.

أشارت إليه في تؤدة وجلست مكانها، أما أنا فلم أستطِع كتمان ضحكي.. ضحكت بهستيرية مبالغة حتى دمعت عيناي.

قال القائم مقام:

– أتذكّرت دعابة ما أم كشف اللّه نظرك على مقعدك في النار؟

قلت:

– لا هذا ولا ذاك، ليس من شأنك على كل الأحوال.

قال:

– أكمل.

قلت في هدوء:

– أريد سيجارة.

قال في عصبية مبالغة:

– ألا تريد بعض التدليك يا جناب البك؟

قلت وأنا اضحك:

– لا شكرًا فخامة الباشا، أريد فقط السيجارة حتى أستطيع أن أكمل.

أخرجَ السيجارة وأشعلها لي، أخذت نفسين متتاليين لينتشر النيكوتين المهدئ في دمي، ثم شرعت أكمل.

قلت:

– أين توقّفت؟ صحيح.. اقتربنا من البوابة الخلفية حيث والد ديدي ينتظر،الكثير من الحرس والكلاب البوليسية يحرسون البوابات، ووالدها كان يجلس على مقعد ما برفقة جهاز الكشف عن المعادن، دخل ميشو ورفع قناعه في إشارة منه لما هو متّفق علية من قبل، فأومأ والدها بالموافقة وأخرج

ساحر الكتب

ثلاث بطاقات تعريفية مزورة بأسمائنا، ثم أخرجَ ميشو بعض العملات النقدية ليدسّها بين يديه.

وضعنا كل شيء على جهاز كشف المعادن، ثم مررنا، عندما مررتُ أنا أخرج الجهاز أصواتًا غريبة، فقاموا بتفتيشي ليخرجوا القلادة.

سألوني فقلت:

– ملك لي، طلبوا مني ارتداءها وإظهارها حتى لا يتكرّر الموقف، ثم شرعنا في الدخول.

مررت بجانب شجرة المانجو القديمة التي قفزت عليها وأنا طفل صغير، لم تكن طارحة بالطبع فنحن في الشتاء، ولكني وجدت ثمرة مانجو ملقاة تحتها، وقد شارفت على العطب.

تركتهم وذهبت ناحيتها، ورفعتها لأضعها في جيب البدلة.

سألني ميشو:

– ما الذي تفعله يا مجنون؟تصرّف كالباشاوات وإلا كُشف أمرنا.

قلت:

– لا تقلق، ثمرة المانجو هذه ستساعدني على تذكيرها، أدعو اللّه أن تتذكّرني أنا أيضًا.

قال:

– ما الذي تنتويه يا ابن الباشا؟ لا نريد أن نُقتل هنا.

ضحكت بسخرية ثم قلت:

– إن لم تخرس، سأقتُلك أنا.

سرنا نحو عشر دقائق في الحديقة الواسعة التي لا تنتهي أبدًا، وكان الجو مطيرًا وباردًا جدًا، وكنتُ أتسلّى وقتها بإخراج بخار المياه من فمي الساخن كنوع من المداعبة أو استرجاع الطفولة، وكانت ديدي تضحك من تفاهتي.

كنت أشعر بأنني رجعت طفلًا ثانية، أتذكر حين كنتُ هنا وأنا في السابعة، عندما كنت بريئًا أحبُّ كل شيء، هنا عندما رأيتها أول مرة وأعطيتها ثمرة المانجو، وهنا حين ابتسمت لي، و هنا...

أصابتني القشعريرة وأنا أتذكر الركض، وأصوات ضرب النار من خلفي،تراجعت قليلًا فشدني ميشو من بدلتي لأكمل المسير، فأكملت.

وصلنا إلى الباب الكبير، ذهبيّا كان، فخمًا جدّا، يوحي بالثراء الفاحش، هؤلاء الأمراء يستغلّون أموال الضرائب استغلالًا غير محدود، لكم من سيارة فخمة موضوعة بالخارج تكفي لإطعام مئات الأحياء لشهور وشهور،كمّ البذخ المبالغ فيه،هؤلاء يسرقوننا ويحللون أموالهم هذه بكل الطرق الممكنة.

دخلنا البهو العملاق للقصر، وكانت اول مرة تخطّو قدماي على أرضه أو بالأصح المرة الأولى التي تلامس قدماي أرضًا بمثل هذه الفخامة، يا للفخامة! يا للرقي! كنت مندهشًا جدّا، ما هذه التماثيل والنياشين واللوحات المعلّقة؟

آه يا قلبي، إنه مليء بالكنوز أكثر من قبو المعلّم إسلام.

نظرتُ وتمعّنت جيداً في كم الذهب والجواهر والأغراض الثمينة التي تملأ القصر.

شهقت من روعة المنظر، شهقت بصوت مسموع لا إراديّا.

فقرصني ميشو في الخفاء وهو يشير لي بالهدوء حتى لا ينكشف أمرنا بسببي، اعتدلتُ، وكتمتُ

شهقتي بشيء من الصعوبة، ثم أكملنا المسير، مال ميشو برأسه قليلًا ناحيتي وقال:

– هذا فراق بيني وبينك يا ابن الباشا.. سآخذ ديدي ونتعايش قليلًا بين الباشاوات، وأنت، خذ الحذر.

قلت هامسًا:

– أتتركني وأنا أحتاج إليك يا صديقي؟

قال وهو يبتسم:

– وماذا سأفعل مع ذكر مثلي؟ اتركني أستمتع قليلًا، تذكّر فقط أنك بك، شاكر بك.

أشرتُ له فتركني واصطحب ديدي وذهب,وتركني وحدي تمامًا.

نظرتُ من حولي، الكل يلهو، الكل من حولي يضحك ويحتسي الخمر، بالرغم من أنه لا توجد إضاءة إلا ما خفّ منها فإنني أرى الكل سعداء.

لطالما تساءلتُ: لماذا يلهو الأغنياء دومًا؟ لماذا دائمًا سعداء ويضحكون؟ إنه لواقع كئيب فعلًا، كل شخص هنا يمتلك على الأقل ملايين الجنيهات، وأنا لا أمتلك إلا القلادة وثمرة المانجو،

ومع ذلك لا أعرف الضحك أبداً، مع أنني لا أحمل هموماً في قلبي، لا أمتلك عملًا، وأخاف مثلهم على أرصدتي في البنوك،ترى لماذا لا أستطيع الاستمتاع هنا؟

قطع حبل أفكاري شخص يربّت على كتفي، توترت، نظرت بالخلف.

كان أحد المدعوين وكان قد بدا عليه علامات السكر، سكيراً كان.

قال لي:

– لماذا تقف – هيء – وحدك يا باشا؟ هل هجرتك حبيبتك؟

قلت متوتراً:

– هل تعرفني؟

قال:

– نعم – هيء – أعرفك، كيف لا أعرفك؟

ازداد توتري، وبداخلي شعرت بأنهم كشفوني.

قال:

– أنت وحيد.

قلت:

– وحيد من يا باشا؟ أنا لست وحيداً.

قال:

– لا لا أنت وحيد، تقف وحدك بلا رفيق، وحيد وحيد.

قلت وقد خفّ توتري قليلًا:

– لا، كان معي رفيق وذهب مع حبيبته.

قال:

– أنت غبي أليس – هيء – كذلك؟ ما قلته هو نفس ما أقوله، أنت وحيد.

قلت:

– حسنًا أنا وحيد، ماذا تريد إذاً يا باشا؟

قال وهو يجذبني من كمّ البزة:

– انضم إلينا، فأنا أكره أن أرى أحداً ما يقف شارداً هكذا، اضحك فنحن في عامٍ جديد.

قلت وأنا أحاول الفرار:

– أرجوك أريد أن أقف وحدي.

ولكّنه كان قد أمسك بذراعي فعلًا، وسرنا معًا.

فجأة،وجدت نفسي أقف بين جمع من الباشاوات، بالطبع لم يعرفني أحد وقتها فالكل متنكّر.

قال السكير:

– أُعرّفكم يا باشاوات، الباشا هذا الذي لا أعرف اسمه، ثم أشار إليهم وقال لي: والباشاوات الذين لا أتذكر أسماءهم.

ضحك الكل وقال لي أحدهم:

– سعيد باشا دائمًا مرح هكذا، اعذره يا باشا.

قلت:

– ظريف فعلًا.

كنت خجولًا جداً أقف بينهم أحاول أن أجاري الموقف، أما السكير الذي قادني إليهم كان قد تركني وذهب، يا له من سكير أحمق!

كنت أقف صامتًا لا أدري ماذا أقول، خائف من كشف الأمر فعلًا.

قالت فتاة:

– لماذا أنت صامت هكذا يا باشا؟

قلت:

– لا أدري ماذا أقول صراحة.

قالت:

– لا تقل شيئًا، سأقول أنا.

مدّت يدها مصافحة وقالت:

– الأميرة صافي حفيدة بنت السلطان حسين كامل، وهؤلاء جودت باشا وكاظم باشا وحازم بك، أبناء عمومتي، أما هذه الفتاة فصديقة جودت باشا، الأميرة فاتنة، حفيدة السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، وجاءت لتحضر معنا الحفل من إسطنبول.

قلت:

– تشرّفنا.

قالت الأميرة:

– وأنت؟ مَن تكون؟

صمتُّ قليلًا وأنا أُفكر في كذبة ما.

فنظرت لي الأميرة صافي قائلة:

– لماذا تصمت يا هذا؟ قل من أنت؟

قلت:

– أنا ابن الباشا.

قالت:

– أي باشا؟ ابن أي باشا أنت؟

قلت:

– لا، لقد أخطأتِ فهمي يا سمو الأميرة، ابن الباشا هو لقبي، أنا فقط خادم هنا أقدّم المقبّلات للباشاوات، سيدتي.

نظروا لي، ثم انفجروا في الضحك.

قالت الأميرة:

– حسنًا يا هذا اذهب وأحضر لنا بعض المقبّلات.

ثم ضحكوا ثانية.

قالت:

– بجديّة، من أنت؟

قلت:

– أنا شاكر بك فخامتك،كنت بالخارج وعُدتُ اليوم إلى المملكة.

قالت:

– حمداً للّه على سلامتك يا شاكر بك، وأين كنت إذاً؟

قلت:

– كنتُ في المدرسة العسكرية في لندن،ثم ذهبت إلى إمارة الحجاز لأتلقى تعليمي الإسلامي، وعدتُ اليوم.

قالت:

ساحر الكتب

– الحجاز؟ الباشاوات لا يذهبون إلى الحجاز إلا للحج فقط.

قلت وأنا أبتسم: أنا بك ولست باشا، على كل حال أنا في المملكة الآن.

قالت:

– لا عليك، أنا أمزح معك، هل تعرف أحداً هنا؟

قلت:

– لا، واحدة فقط كنت أعرفُها وأنا طفل صغير.

ارتفع صوت الموسيقى في أرجاء القصر استعداداً للسهرة.

نظرت لي وقالت بصوت عالٍ:

– ومَن هي يا بك؟ اسمح لي أن أسألك بالطبع.

قلت:

– العفو يا جناب الأميرة، إنها شاهندة.

صمتت لبرهة ثم قالت:

– شاهندة؟ الأميرة شاهندة؟

قلت:

– نعم هي، أتعرفينها.

نظرت لي في بلاهة وقالت:

– ومَن لا يعرفها؟ إنها ملكة جمال القصر كما يسمونها.

قلت:

– وأين هي؟

قالت:

– في العلية بالتأكيد، حجرتها الثالثة، وأنصحك ألّا تقترب منها.

قلت:

– لماذا؟

اقتربت من أذني وقالت:

– أحد أغلظ الأمراء هنا يحبّها، ويغار عليها بشكل جنوني، سيقتلك أيًا من تكون، مجنون بها هو.

قلت بعضب:

– لهذا الحد؟ أليست صغيره قليلًا على الحب؟

قالت:

– عشرون عامًا يا هذا، فقط ابتعد عنها.

قلت:

– حسنًا يا فخامة الأميرة، حسنًا، حسنًا، لا تقلقي.

قالت وهي تتركني:

– ليس من شأني ولا أهتمُّ، اعذرني على الذهاب.

ثم تركتني وذهبت إلى أصدقائها، فانسحبت ببطء.

نظرتُ إلى الدرج، إنها في العلية إذًا، كيف سأفعلها يا ترى؟

لم يكن أحد ينظر لي، وأنا كنت أُفكّر وقتها كيف سأصعد؟ وهل سأصعد أم أنتظرها لتأتي هي؟

ذهبتُ إلى كرسي على البار في القاعة وجلست، وكنتُ أفكّر مليّا.

قلت لنفسي إنها فرصة واحدة، لن أدخل القصر ثانية، وكل ما يحدث ربما هي إشارة من الرب.

أخذتُ نفسًا عميقًا، وبخطوات متعرّجة قررتُ الصعود.

قلت لنفسي: فقط سأعطيها القلادة وأرحل، لا شيء أكثر من هذا، سأترك لها ذكرى جميلة وأعود أدراجي.

صعدتُ الدرج المليء بالحرس الألباني، خطر جدّا كان، تخيلتُ ما الذي سيحدث لي في حالة انكشف أمري.

وصلتُ إلى العلية، هناك حارس بجانب كل باب، ولكنهم لا يتكلّمون أبدًا، فقط يتحرّكون في حالة الخطر.

تأكّدتُ من وضع قناعي، ثم بخطوات ثابتة، اتجهتُ إلى الحجرة الثالثة،نظرت إلى الحارس ونظرت حولي،كل شيء ثابت،وفي موضعه.

طرقت باب حجرتها.

صوتها من الداخل قال:

– لحظة واحدة.

ثم مرّت بضع ثوانٍ، فجاء الصوت ثانية:

– ادخل.

بيد مرتعشة أمسكت بالمقبض وأدرته ببطء.

ما هذا الرعب الذي اعتلاني؟ خطوة واحدة بين ما أضحيت وأفنيت سنوات عمري في التخطيط له، وبين الفرار من ذلك الحفل، ولكن إذا ما رحلت سأندم بقية حياتي على الفرصة التي أهدرتُها.

بخطوة جريئة فتحت الباب على مصراعيه ودخلت، ثم أغلقتُ الباب من ورائي.

كانت هي تجلس تمشّط شعرها الذهبي في وقار، وكان ظهرها لي، أخ على الحب! يا له من إحساس غريب! إحساس عضوي ونفسي وعقلي.

عضوي حيث يتدفّق الدم بغزارة في دورته الدموية،فينقبض القلب ثم يبدأ القلب في الانقباض والتضخم، يفرز الجسم هرمون الأدرينالين ليشعرك بالخدر، قدمك تهتزّ بالأسفل ولا تكاد تشعر بساقيك، فجأة تشعر بأنك ثقيل جدًا على

هذا الهيكل العظمي الواهن،تكاد مفاصلك تنفصل عن بعضها البعض،تصطك أسنانك كالثعالب،تشعر بانسحاب الدماء عن أطرافك ووجهك فيسرع القلب في عملة حتى لتشعر بأن قلبك يرقص بدلًا منك، يرقص بداخل قفصك الصدري حرفيًّا، يرقص ويدق كما لو كان في حفل راقص، يكاد يقفز خارج جسدك بالكامل، وأنا كنت أترقّب هذه اللحظة فازداد الرقص بداخلي أكثر مما تخيلت، حتى أني وضعت يدي على صدري لأمنعه من الولوج إلى الخارج.

أما نفسيًّا فأشعر بكل الاضطرابات النفسية في لحظة واحدة، الخوف والرهبة والقلق والحيرة، الوسواس القهري، الفوبيا بأنواعها، كل شيء.

عقلي يختار هذه اللحظة بالتحديد ليتذكّر كل شيء، كل لحن سمعته من قبل، كل بيت شعر ألقاه الشعراء الأيام الخوالي، كل مشهد رومانسي رأيته في الأفلام في العقدين البائدين من عمري، أتذكر أن السماء زرقاء، وهناك شمس وقمر وأشجار وبحيرات، أتذكر أن الجو بارد، أتذكر أنني أتنفس، أنني أحيا، أنني أسير على قدمين، أتذكر كل تفصيلة تمرُّ على في حياتي، أخ، يا له من إحساس عجيب!

لا عجب أن الحب هو أساس الحياة، أهم من المياه، وأهم من كل شيء، صمت قليلًا لا أقدر على النطق، فالتفتت.

التفتت في ثانية وجزء من الثانية، مرّت عليّ كالدهر، كأن في التفاتتها انفجر النجم الأول لتتكون مجراتنا، في التفاتتها مليارات الأعوام الضوئية، مليارات النجوم والمجرات والسدم والنجوم السوداء، هي اللاشيء بنفسه، من جزيئاتها تكونت أول خلية حية على كوكب الأرض، منها خلقنا جميعًا، في التفاتتها طاقة ضوئية لا محدودة أبدًا، طاقة تستطيع خلق الألماس من العدم، طاقة تكفي لإذابة الذهب ودمجه مع النيكل والنحاس، طاقة جعلتني أتعرّق كالخنزير أمامها.

نظرت لي، فابتسمت، لا ليست كأي ابتسامة أبدًا، إنها ابتسامة آدم حين وضع اللّه الروح فيه، ابتسامة الكون ذاته، السلام النفسي الذي يحتاجه البشر لتحقيق السلام بين الأعراق المتناحرة، ابتسامة ترسل أشعة تبعث الطمأنينة في القلوب، الثانية بعد ذكر اللّه، وكانت بردًا وسلامًا على قلبي.

قالت شيئًا ما فاهتزت أحبالُها الصوتية لتتكون الزلازل وتنفجر البراكين، في اهتزاز شفتيها وحي ينزل من السماء لهداية البشر، شفتان تقطران من بين شدقيها مشروب الخلود، النهر الذي طالما

بحث عنة جلجامش ليخلد، لماذا كان يبحث عنه إذاً وهو هنا في ذلك القصر؟ في هذه الحجرة بالتحديد؟

استعدتُ وعيي في لحظة، وأنا لا أستطيع أن أزيل ابتسامتي عن وجهي.

قلت بصوت مهزوز:

– سمو الأميرة، كيف حال فخامتك؟

قالت وهي تبتسم:

– بخير، مَن أنت؟

قلت:

– أنا، أنا.

تلعثمت في الكلام فابتسمت بدورها وقالت:

– اهدأ ولا تخف، قل لي من أنت؟

قلت:

– أنا، ألا تتذكرينني؟

قالت:

– إن لم تقل شيئا لأتذكرك، مَن أنت؟

قلت:

– ستعرفينني، ولكني أولا أريد أن أُهديك شيئًا ما.

قالت:

– وما المناسبة؟

قلت:

– ستعرفين.

ثم أخرجتُ من جعبتي القلادة، واقتربت ببطء ووضعتها بين يديها البيضاء.

نظرت لها ورفعتها أمام عينها، ثم قالت بهدوء كبير:

– ما هذا؟ ثمرة مانجو؟ ما هذه القلادة؟

قلت:

– منذ ما يقرب الخمسة عشر عامًا، وأنا أتمنى هذه اللحظة، ثمرة المانجو هي كل قصّتنا معًا.

صمتت وكأنها تنصت لي، وتحاول التذكّر.

قلت:

– منذ خمسة عشر عامًا، كنت ألهو في الحديقة بالخارج، وكنتِ أنتِ الشمس التي تنير الحديقة بالخارج، منذ أن رأيتك ونحن أطفال، لم أنسَ قط عينيك وشعرك، وابتسامتك.

قالت وقد أشرق وجهها:

– نعم نعم أتذكر، أنت ذلك الطفل الذي أعطاني ثمرة المانجو.

قلت وأنا أنزع القناع:

– نعم، إنه أنا.

قالت:

– يا إلهي، أما زلتَ حيًّا؟ لقد حاول عمّي قتلك.

قلت:

– لقد هربت يومها، ولا أدري لماذا تصرّف معي هكذا، ولكن لا يهم.

قالت:

– كان اسمك، أممم، ابن الباشا، أليس كذلك؟

قلت:

– ذاكرتك قوية يا جناب الأميرة، نعم هذا اسمي.

قالت:

– نعم أتذكّر كل شيء، لقد ضربني عمّي في ذلك اليوم، وقال إنه سينتهي منك، وإنه ليس عليَّ أن أكلّمك أبدًا، قل لي: ألا تعرف السبب؟

قلت:

– لا أعرف، كل ما أعرفه أنني أحبّك.

قالت بحنان:

– ما الذي تقوله؟ آه يا إلهي!

قلت:

– نعم، خمسة عشر عامًا، وأنا لم أنسَكِ مطلقًا، وأنا أتمنى أن أنظر إليك وأقولها.

قالت, وقد اقتربت مني:

– أنا أيضًا لم أنسَك، فقط حاولت أن أتناساك، فقد قالوا إنك قد متّ، حتى إنني احتفظت بالثمرة التي أعطيتني إياها، ما زالت معي.

ثم إنها اتجهت صوب دولابها, وأخرجت علبة معدنية، وأخرجت ثمرة المانجو ورفعتها أمام عيني وضحكت.

قالت:

– شيء عجيب، ثمرة مانجو قيمتها قرش، ولكنها تعني الكثير.

ابتسمت بدوري, وقلت:

– صحيح تحبين ذلك الأمير؟

نظرت لي, وقد قضّبت وجهها:

– يريد أن يتزوجني، وأنا أرفض، ولا أحبّه مطلقًا، ولكن كيف عرفت؟ وكيف دخلت القصر ثانية؟

قلت:

– لي أكثر من طريقة.

قالت:

– وكيف ستخرج؟ سيقتلونك إن عرفوا حقيقتك.

قلت:

– لا تقلقي، أنا فقط أريد أن...

فجأة، سمعنا طرقًا على الباب، والصوت من الخارج:

– حبيبتي، أين أنتِ؟ أنتظرك منذ ساعتين،سأدخل.

قفزت شاهندة من مكانها، وقالت متوترة:

– إنه الأمير، سيقتلك إن رآك.

قلت بتوتر وأنا أنظر حولي:

– ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟

قالت هامسة:

– اختبيء خلف الستار، هيا.

ركضت إلى حيث الستار وقلبي لا يكف عن الخفقان، وكان هو يدير المقبض، دخل فقال:

– ما الذي يؤخرك هكذا يا حبيبتي؟ أنتظرك منذ مدّة.

قالت في توتر واضح:

– لا شيء، لا شيء، فقط كنت أُمشّط شعري.

صمتت ثم قالت:

– لماذا أتيتَ إلى هنا؟

قال, وقد بدت عليه علامات الغضب:

– ماذا تعنين، ألست خطيبتي؟

قالت:

– لا، لستُ خطيبتك، أنا حتى لم أوافق.

قال:

– ومن أنتِ حتى توافقي أو ترفضي؟ حديثي موجّة لوالدك فقط، والحريم يخضعون للأوامر يا حبيبتي.

قالت:

– ما هذا التخلّف الذي تتحدث فيه؟ نحن في الألفية الثالثة، ما تقوله هذا قد انتهى مع وفاة الخديوي.

قال بغضب وهو يقترب منها:

– تخلّف أو لا، هذه عاداتنا، وهذه تقاليدنا.

ثم حاول تقبيلها وقال:

– وسنتزوج لأنني أحبك.

أبعدته بيديها وحاولت حماية نفسها فاشتعلت بالغضب.

نظر الأمير إلى يدها وكان قد رأى القلادة، أشار لها في محاولة للفهم، فلم تُجِبه.

فخطفها ونظر لها وقال:

– ما هذا؟ ما هذا يا فاجرة؟

قالت صارخة:

– الزم حدودك، وتفضل اخرج.

لم يُعرها اهتمامًا وقال:

– هذه القطعة من الحلي لا تخصُّك، من أعطاك إياها أيتها الخائنة؟ ألهذا تصدينني؟

نظر حوله وقال:

– هل هو معنا الآن في هذه الغرفة؟ سأقتله.

ثم صرخ كالثور وراح يعبث في الغرفة كالمجنون، فحاولت شاهندة منعه.. فدفعها لتسقط على الأرض وهو يخور كالثور الهائج.

عند هذه اللحظة لم أعد أتحمل.

خرجت من وراء الستار وصرخت:

– اتركها يا ابن العاهرة.

التفتَ إليَّ ثم ابتسم ابتسامة شيطانية ان دلّت فإنما فتدلُّ على أنه سيمزقني.

قال بهدوء وهو يبتسم:

– عاهرة؟ مَن أنت أيها المدنس؟ كيف تجرؤ؟

قلت:

– أنا من سيوقفك عند حدك أيها الثور، استعد لتتلقى عقابك.

ضحك كثيرًا ونظر لها قائلًا:

– هذا التافه؟ تخونينني من أجل ذاك التافه؟ لأقتلنّكم أجمعين.

ثم إنه ركض في اتجاهي, وكانت شاهندة تصرخ، ثم انه قفز فوقي وبدأ في تسديد اللكمات.

حاولت بأقصى قواي أن أتفاداها ولكن خارت قواي قليلًا.

تلقيت صفعتين وأنا أنظر إلى شاهندة الباكية، كانت تبكي، تبكي كثيرًا.

استجمعتُ طاقتي بالرغم من حجمة الهائل، ثم إنني نجحت في الإمساك بيده والدوران به، فكان هو تحتي.

صفعته فلم تكفِ قبضتي الرخوة لصدّه، صفعته ثانية فقط ليعيد هو الكرّة فيدفعني من فوقة لأندفع إلى الخلف ويرتطم رأسي بحرف الكومود الخاص بالأميرة.

كان يضربني بغلّ، كأنه يريد قتلي، وكنت أنا أُنازع، كانت يدي تسبح في الهواء محاولًا التملّص فلا أقدر، لقد وقعتُ كالذبابة في مصيدة عنكبوت سام، سيقتلني ثم يأكلني لا محالة.

لمحت بطرف عيني مقصّا صغيرًا خاصّا بالأميرة، حاولت الوصول له بأطراف أصابعي، حاولت أكثر وهو لا يكفُّ عن صفعي.

هنا، كفّ عن صفعي وأمسك بحنجرتي محاولًا خنقي، كان الزبد يتطاير من فمه ويضحك كالمجنون، وأنا كنت على وشك الموت فعلًا.

لا أستطيع التنفّس، أحاول الوصول إلى المقص، إلى أي شيء، أريد أن أعيش لا أن أموت تحت ذلك الثور.

بمعجزة ما وصلت إلى المقص، أمسكت به وبكل قوة لديّ، طعنته في عينه اليسرى، فانفجر السائل الأبيض المختلط ببعض الدماء، فصرخ وتراجع قليلًا وترك حنجرتي، ثم إنني أخرجت المقص من عينه في كامل غضبي وكبريائي، وطعنته ثانية فقط لتستقر في عنقه.

يمسك بعنقه محاولًا التنفّس والحشرجة بلا أمل، فقط لتمر دقيقة من رهبة الموقف صامتين، ثم

يهدأ، يهدأ إلى الأبد، يهدأ وهو سابح في بركة من الدماء، وثمرة المانجو التي كانت في سترتي تسبح معه، بجانبه.

تراجعت شاهندة بخطوات مهزوزة وهي مندهشة لا تدري ماذا تفعل، أتصرخ أم تبكي أم تصمت.

نظرت لها, ولا أدري ما الذي حدث بالضبط، أنا فقط كنت أريد أن أعبّر لها عن حبي، عن إعجابي، عن كل ما بداخلي.. لقد صرتُ قاتلًا، قاتلًا، سيعدمونني.

قلت بخوف:

– لم، لم، أكن أقصد، هو من، هو من تهجّم عليَّ.

لم تنطق.

هنا ظهر الحارس، فتح الباب عندما سمع الصريخ والحشرجة وقرّر أن يدخل في هذه اللحظة بالذات، ليرى الدماء والأمير الملقى على الأرض وقد سار جثّة هامدة، وأنا وقد تلطّخت بالدماء.

هنا، كان رد فعلي سريعًا، نظرت لها ثم نظرت إلى الحارس، ثم دفعت الحارس وأطلقت ساقيَّ للريح.

ركضتُ، أريد أن أخرج من هنا، ركضت في العلية أحاول الوصول إلى الدرج.

ولكن الحارس كان قد خرج وأطلق طلقة نارية في الهواء، فتجمّع الحراس.

لحسن الحظ كنت قد وصلت إلى الدرج، ركضتُ فوق الدرج أدفعُ من أدفع وأسقط من أسقط، أركضُ ولا أنظر إلى الخلف أبداً، وصوت النيران من خلفي.

أطلقت أصوات الإنذار في كل أرجاء القصر،أنوار توحي بالخطر، بالجدية.

سيقتلونني،أعرف هذا،كنت ألهثُ وأتماسك على قدر من الإمكان بلا جدوى.

باب حديدي يقفل ببطء على الباب الرئيسي، قابلت صافي في طريقي فقالت:

– ماذا حدث يا ابن الباشا؟

لم أكترث ودفعتُها فصرخت، لاهثًا أحاول الوصول إلى البوابة، أصوات الإنذار تنطلق، أصوات النيران، الكلاب، يصرخ الحرس:

– أمسكوه، لقد قتل الأمير مصطفى، أمسكوا السفّاح.

ركضتُ بكل قوتي، بكل شيء، ضغطت على كل ذرّة من جسدي لأتحامل، أشعر بأنني أصبت ولا اكترث.

التف حول الناس والحرس لأهرب، كأنني فأر وقع في مصيدة، لا مناص.

وصلتُ أخيرًا إلى البوابة ووصلت إلى الحديقة التي سارت مزرعة للكلاب، الكلاب تركض خلفي ومن خلفهم الحرس، أركضُ بشكل متعرّج تحت الأمطار، يركضون خلفي بلا توقف.

كيف سأخرج؟

اتجهتُ إلى المخرج القديم، السور القصير والشجرة، ها هي.

قفزتُ عليها وتسلّقت، إنني أشتمُّ الهواء الطلق، أرى الشارع الخلفي، لا أصدّق نفسي.

قفزتُ على السور وتسلّقتة وقد سار أقصر، أو أنني قد كبرت لا أدري.

فقط أنا نجوت، هربتُ، لم أُقتل.

ركضتُ مبتعداً لا أدري أين سأذهب الآن، لا أعرف.

قادتني قدماي إلى دكّان المعلّم إسلام، هذا المكان هو الأمل الوحيد للاختباء، القبو.

ذهبت إليه وكانت الساعة قد تجاوزت الرابعة فجراً، بالطبع هو يغط في النوم الآن.

طرقت بابه آلاف المرات حتى فتح وهو يبسمل ويحوقل.

كان وجهه السمين هو أسعد وجهٍ رأيته في حياتي، ويا ليته لم يفتح تلك الليلة.

* * *

٨

قال القائم مقام:

– إذاً، كان أنت من قتل الأمير راسخ ذلك اليوم؟

قلت:

– نعم أنا.

قال:

– آخر من كنّا نتوقع،وهذا ما قادك إلى باقي الجرائم إذاً صحيح؟

قلت:

– لا، القصّة لم تبدأ بعد،اعتبر كل ما قلته مجرّد مقدّمة لما هو آتٍ.

قال وقد شعر بالغضب:

– كل هذا الحديث مقدّمة فقط؟ أتريدني أن أنتحر الآن يا بك؟

قلت:

– بالطبع هاهاها، ولكن انتظر وستنتحر في النهاية، قل لي.. ما الذي تتذكره عن حادث مقتل مصطفى باشا؟

قال:

– نحن من نستجوبك هنا يا خفيف الظل، التزم بالقواعد حتى ننتهي سريعًا.

قلت وأنا أصرخُ بجنون:

– عندما، أسأل، سؤالًا، أجبني.

نظر لي، وكأنه يتعجّب من جرأتي، وقال:

– أقسم باللّه، أتمنى قتلك الآن، وأستطيع فعلها ولكن...

قلتُ مقاطعًا:

– ولكن تريد أن تذعن لأوامر الملك، وتتركني أكمل، وتأخذ اعترافاتي كلها ثم تقدّمها للحاشية فتترقى، وتصير أميرلاي، أليس كذلك؟

لم يرد، فأكملت:

– أجب إذًا عن سؤالي وسأساعدك، أعدك.

قال:

– حسنًا، كنت وقتها صاغًا، وقد استدعاني القصر للتحقيق برفقة القائم مقام والأميرلاي وجناب معالي الباشا المشير.

قلت:

– أكمل، وماذا كانت النتيجة؟

قال:

– حسنًا، حسنًا، النتيجة أنهم عرفوا أن منفّذ العملية هو أحد الصعاليك من الخارج، وقد دخل ومعه اثنان من الحرافيش، محمد فؤاد وهدى سعد، وقد فعلها القاتل انتقامًا من الباشاوات نتيجة لحقد طبقي على فقره، فعلها لأنه فقير حاقد.

قلت:

– أترى؟ نرجسية حتى في التحقيق، تظنّون أن المملكة لكم فقط، الكل يريد قتلكم، لماذا تخافون إذًا؟ هل لأن ضمائركم لم تكن قط مستريحة؟

قال:

ساحر الكتب

– التزم بسياق الاعترافات ولا تصنع من نفسك بطلًا، أنت سفّاح يا بك، سفّاح وستظل سفاحًا.

قلت:

– حسنًا، على الأقل أنا لا أحلّ لنفسي أموال الكادحين من عامة الشعب، لا أستبيحها لنفسي تحت مسمى "الحاشية الملكية".

قال بغضب:

– أكمل يا بك، أكمل ودعنا من هذه الأحاديث الجانبية.

قلت:

– حسنًا، أريد كوبًا من المياه، واسقني في فمي.

أشار إلى أحد الحراس فأحضر المياه وسقاني وضحكت وقلت:

– يا للشرف! الباشا يسقيني أنا الذليل السفاح الصعلوك، هذا انقلاب يا سيدي، اهاهاها.

لم يرد فأكملت ضحكًا،هنا أخذ دورق المياه المصنوع من الزجاج، وألقاه على الأرض الصلبة ليتفتت أمامه بعصبية بالغة ثم التفت وقال:

– أكمل يا صعلوك، أكمل.

وصرخ فيها ثم إنه سحب بعض الأكسجين من الهواء بحدّة.

نظرتُ له، وصمتت لبرهة احتراماً لمشاعره، انني بالفعل أقوده إلى الذبحة الصدرية بسرعة البرق، صمت ثم أكملت.

مرَّ يومان على الحادثة الأليمة، اكتشفتُ أنهم قد أصابوني بعيار ناري في كتفي اليمنى من النوع المستخدم في فض المظاهرات، الخرطوش الملكي، اكتشفته عندما دخلتُ إلى دكّان المعلّم إسلام، أو بالأصح اكتشفه المعلّم بنفسه.

أخذني وجاء لي بمقعد خشبي، وكان العرق قد بلل كل شيء بالرغم من البرد القارس.

كان هو يرعاني كابن له بالضبط، وكان هو كأبي رحمه اللّه، يداويني بكل ما يستطيع تقديمة من دواء وعناية، بالرغم من كثرة بصقه على الأرض، وظهره الذي انحنى من أثر الشيخوخة، ولكنّه استمر في مداواتي، وما زاد وغطَى أنه كان قد أصابتني حُمّة يومها إثر الركض والفرار، فالتزمت القبو يومين.

يومين بلا وعي مطلقًا، لا أدري أي شيء، وما الذي يحدث بالخارج.

لم أكن أفكّر في أي شيء إلا شاهندة، فهي تظن أنني قاتل الآن، صار من المستحيل أن أصل إليها ثانية أو هكذا ظننتُ وقتها.

أصعب وقت قد مرّ على كان هذا الوقت العصيب، أفيقُ فقط لأذهب إلى النوم مجددًا، لا آكل أي شيء إلا ما يضعه المعلّم في جوفي، بعض اللقيمات والكثير من مرق الدجاج، الكثير منه مع عصر الليمون الأخضر، ذلك العلاج الأسطوري لكل شيء، يعدّه البعض من المشروبات الروحية أو نبع الخلود تحديدًا، يتجرّعونه حتى إذا صدموا عاطفيًا أو اشتكوا من قلّة الرزق، هو مشروب مترسّب في الجينات، لا مناص منه أبدًا.

أفقتُ قليلًا بعد يومين من أضغاث الأحلام والتقلّبات، وعيت الدنيا كطفل وليد يرى العالم لأول مرة، فيكف عن البكاء ليستطيع فهم وترجمة الكمّ الهائل من الصور المستقبلة عينه الصغيرة.

جاءني المعلّم إسلام ببعض المرق ثانية، وهو يسير بخطى بطيئة كعادته ويمارس هوايته المفضّلة، البصق على الأرض.

جلس بجانب فرشتي، وضع يده على جبيني، ثم أمسك بالملعقة وظل يطعمني بيده.

بعدما فرغنا، سألني فطمأنته، فأطمأنَّ.

قال:

– لم أسألك عمّا تعرَّضت له يا بني لأنك كنت في حالة يرثى لها، ولكنني أريد أن أعرف، فأنا أخاف عليك وأنت تعلم ذلك.

نظرت له وأنا لا أعلم كيف سأرد.

أكمل:

– بني، أنا قد علمت أشياء وأشياء، وحال الحي قد تبدّل في يومين فقط، أنت لا تدري ما الذي يحدث بالخارج "بلا قافية"، الكل يبحثون، الكل معتقلون، هناك شيء ما قد حدث وأنت لا تريد أن تتكلم، أخبرني حتى ما سر الملابس التي ترتديها الآن، أخبرني أي شيء.

أشحتُ بوجهي بعيداً عنه، فقال:

– إذاً فهو أنت،لا تخفْ، أنا والدك قبل أن أكون جارك ومعلّمك، أخبرني وسيظل كل شيء بيننا.

عند هذه اللحظة لم أكن أقدر على تحمل المزيد من عبء ما أتكتّم عليه.

بكيت، أخبرته بكل شيء ثم بكيت، انتحبتُ كمن فقدتْ وليدها، بكيت بحرقة، بكيت كما يبكي أهل النار عند وصولهم لأبوابها في الحياة الأخرى، بكيت كما لو أني أرى كبش الموت يُذبح فأعلم أنني خالد فيها لا محالة.

ربّت على المعلّم إسلام ولم يستطع التكلّم قط، كان لسان حاله يقول الكثير.

يقول إنني أحمل فوق عاتقي الكثير، أتحمّل الكثير، وأي كلمة أخرى منة ستزيد الوضع سوءاً.

قال المعلّم:

– أنا أعرف الحب يا بني، الحب والخوف والجوع يقودان الإنسان منا لارتكاب أفظع مما ارتكبت، إنها الغريزة ولا مؤاخذة يا بني.

قلت بصوت مبحوح:

– أنا حاليّا لا أدري ماذا عليَّ فعله يا معلّم، أنا كنت على وشك القتل، وأنا مذنب الآن وهارب من الحرس، أنا قاتل يا معلّم.

قال:

– ألم تخبرني أنه لم يتعرّف عليك أحد؟

قلت:

– بلى، لم يتعرّف عليَّ أحد قط، الكل يظنني باشا من الباشاوات، حتى صافي التي حكيت لك عنها، تظنني باشا أيضًا.

قال:

– إذًا لماذا تخاف؟ هل يعرف أحد أنك كنت بالداخل؟

فكّرت مليًّا ثم قلت:

– امممم لا، فقط شاهندة وهي لن تتكلم بالطبع، و...

تذكّرت، ميشو وديدي، كانا في الحفل، إن أمسكوا بهما سيستخلصون منهما المعلومات ببساطة ثم سيقتلونهما، وأمي.

قلت وقد توترت:

– معلّم، عليَّ أن أخرج.

ثم هممت بالوقوف بصعوبة فقط لأشعر بالدوار ثانية، فيمسك بي المعلّم قبل أن أقع ثانية.

قال:

– استرح ولا تخف، ساعة فقط ستفيق وستخرج لتفعل ما يحلو لك.

قلت:

– ما الذي يحدث بالخارج يا معلّم؟

قال:

– لا تقلق خيرًا إن شاء المولى.

شعرت بأنه يكذب، فأصررت على استجوابه.

قلت:

– معلّم، أنا أعرف وجهك حين تحاول أن تداري شيئًا ما، ما الذي يحدث يا عمّي؟

قال وقد حاول أن يُداري عينيه عني:

– الصراحة يا بني، يبحثون عن القاتل، وقد أعلنوا منذ قليل أنهم تحفّظوا على اثنين من المدعوين

الذين انتحلوا صفات الباشاوات، و...

ثم صمت لبرهة وأنا أحاول أن أكذّب أذني.

أكمل:

– أعدموهما بقطع الرأس.

هنا، لم أشعر بالدنيا حولي، لقد انقلبت اللعبة علينا، ما ظنناه لهو أطفال سار مشكلة عويصة الحل،ولكن، قتلوا ميشو وديدي، يا إلهي! لقد قتلوا صديقيَّ، لم يتزوجا حتى.

شعرت بالدوار.

أكمل المعلّم حديثة قائلًا:

– قطعوا رأسيهما أمام الكل، وأعلنوها على التليفزيون العام يا ولدي، وقالوا أيضًا إنهما من ساعدا السفّاح على الدخول.

قلت:

– سفّاح؟ لا، إنها جريمة قتل خطأ واحدة.

أكمل:

– وقالوا إنه سفّاح متعدد، يترك ثمرة مانجو بجانب الضحية، والآن هم يبحثون عنه ويحاولون تحديد هويته.

قلت:

– كل ذلك حدث في يوم واحد؟

قال:

– وأكثر، لقد هجم الحرس على الحي والأحياء المجاورة، واقتادوا الناس، والخدم كلهم إلى المعتقل، والبحث ما زال مستمرًا، عليك أن تختبئ يا ولدي.

قلت:

– لا، عليَّ أن أخرج، صديقاي قد قُتلا يا معلّم، عليَّ أن أخرج.

وقفت ثانية فلم أتحمّل، فقط لأسقط مغشيًا عليَّ.

ثمرة المانجو، يا لها من نبتة، نبتة شيطانية تخرج من الأحراش، تخرج من قلب الفقر لتنبت أغلى أنواع الفاكهة وألذّها مذاقًا وأطيبها رائحة.

تنبت الشجرة في الدغل، يظنّها الكل شجرة عادية لا فائدة منها، لا يكلّفك زرعها شيئًا فهي تنبت وحدها، فتخرج ثمارًا تعدُّ الأغلى والأشهى على مستوى العالم.

ثمرة تنبت في القصور وفي الحدائق وأيضًا تنبت في الحواري والأحياء الفقيرة، لا ترفض الطرح أبداً، لا تعرف معنى للعنصرية، تزدهر للكل.. يكتشف العالم مذاقها بعد إنباتها وطرحها، بعدما يفوت الأوان ويمر الشتاء بقسوته، زراعتها لا تكلّفك شيئًا، ولكنها تجني لك الكثير.

هل كان استخدام المانجو محض مصادفة؟

نعم، ولكن المحققين اعتبروها مقصودة، اعتبروها إمضاء السفّاح بجانب حادثة القتل.

نحن هنا نتكلم عن اغتيال سياسي، إنه أمير، من العائلة المالكة وليس مجرّد سائق أو عامل في مدرسة.

هناك احتمال لا يستهان به أنها مؤامرة تستهدف الكل، ولهذا تم الاهتمام بالموضوع.

خاصة أن الأمير قد قُتل ذبحًا وفي حفل رأس السنة بداخل القصر.

لو كان القتيل هو الغفير أو أحد الحرس لمر الحادث مرور الكرام، ولكنّه أمير، باشا، ذو حصانة دولية.

ولهذا ظهر كبراء المحققين للتحقيق في الواقعة، انتشر الحرس في أرجاء المملكة كلها وأُعلنت حالة الطوارئ، وصلوا حتى حدود المملكة في ليبيا وفلسطين، انتشر الحرس في كل ركن، أمام كل بيت، بداخل كل متجر.

كانت أيامًا عصيبة على الكل، وأنا كنت حبيس الدكّان لأسابيع، لا أخرج أبدًا، يمنعني المعلّم من الخروج من القبو حتى تهدأ الأجواء قليلًا.

هدأ الموضوع قليلًا، وإن تحفّظوا على المعاملات مع الكل، خرج الكثير من المعتقلات بعد التحقيقات، ورجعت الحياة تدريجيًّا إلى معدّلها الطبيعي، وإن تُوفي الكثير وخُطف الكثير من الأحياء المجاورة وحينا أيضًا.

كنت قلقًا جدًّا على أمي، خفت أن يقودوها إلى المعتقل مثلما فعلوا مع الأغلبية.

في يوم، جاء لي المعلّم إسلام ووجهه مليء بالحزن والحيرة في نفس الوقت.. استقبلته في القبو وكنت أنظّف يومها قليلًا في الأرجاء.

دخل عليّ وكان يتحاشى الكلام معي.

اقتربت منه ونظرت في عينه وقلت:

– ماذا حدث يا معلّم؟

لم يجبني.

أعدتُ السؤال وأنا امسك بيديه السمينتين:

– ماذا حدث يا معلّم إسلام؟ قل لي.

بكى المعلّم، بكى بحرقة وكانت أول مرة في حياتي أراه يبكي.

قلت وأنا قلق:

– هل حدث لك مكروه؟

قال وقد تحشرج صوته:

– بني، أنت بني، أرجوك تحمّل ما سأخبرك به، أنت مؤمن بقضاء الله.

فتحت فمي غير مصدّق لما يقول،حاولت أن ألا أستمع له وقلت:

– بالتأكيد أنت كاذب، لا لن أصدّق ما ستقول الآن.

أكمل و هو يبكي:

– منذ ما يقارب الأسبوع، جاء الحرس في الليل، وأخذوا ما استطاعوا أخذه من سكّان الحي، النساء قبل الرجال, و.. وقد أخذوا الحاجة جميلة معهم.. ثم، ثم، وجدوها ملقية البارحة على حدود الحي وقد...وقد توفّاها اللّه.

ثم أخذ في البكاء الحار.

لم أصدّقه بالطبع، وقلت:

– كفى مزاحًا يا معلّم وقل لي.. ما الذي حدث فعلًا.

ولكنّه نظر لي وأكمل بكاءه، لم أستوعب في البداية أنه قد أخبرني بوفاتها، قد شلّ عقلي عند هذه اللحظة، ولكن تدريجيًا أدركت ما حدث.

فجأة صرخت،أمسك بي المعلّم إسلام فدفعته، وركضتُ بالخارج.

كنتُ أركضُ كالملدوغ، أصرخُ على أمي وأبكي وأركض وأتعثّر، لا أكترث لأحد، كان الكل يحاول

منعي وأنا أكمل ركضي، الكل كانوا ينظرون في الأرض كما لو كان ذنبهم.

صعدت إلي المنزل وطرقت على أمل أن يكونوا قد كذبوا عليَّ، نظرت لهم وقلت: انتظروا ستفتح الآن، ستفتح أمي.

حضنني الكل وكنت أدفعهم دفعًا، أصرخ وأقول:

– أين أمي؟ أين خبأتموها؟ أين هي؟

أوقفني أحد الكبار "الحاج بوشي" الحدّاد، وكنت احترمه كثيرًا لصوته الأجش وطريقته المحببة في الحديث.

أخذ بيدي وقال:

– أنت رجل يا حبيبي، رجل، والدتك قد ذهبت لمن هو أحنّ من الكل.

نظرتُ له وبكيت، فاحتضنني كثيرًا، ثم قال:

– أنت رجل، وستظل رجلًا، تماسك واذهب لتدعو لها.

قلت:

– أين هي؟

قال:

– دُفنت يا حبيبي، في مقابر أبو العزايم في الشرقية، لا تقلق لقد قمنا بكل شيء، ادعُ لها اللّه بالرحمة، سنُحضر سيارة ونأخذك لها.

وصلنا الشرقية في المساء، ودخلت المقابر وحدي كما طلبت.

آه على ذلك الإحساس، الإحساس بالوحدة، بالعدم، باللاشيء.

إنه إحساس العجز، عندما تكتشف فجأة أنك بلا سند في هذه الدنيا، بلا قريب، غريب يجوب المقابر.

أمي التي كانت تضحك وتلاعبني، تحضّر لي الأكل، تخاف عليّ، تنظر لي في حبٍّ، قد ذهبت هكذا، حتى أنني لم أرها، لم أودعها، إحساس البرد والوحشة، كأنني سرت بلا هدف، بلا أي شيء.

آه يا اللّه على ذلك الإحساس،كنت أحتضن قبرها بشدّة، وأبكي.

لا أقوى على قول شيء أبداً، فقط أحتضن القبر، أُفكّر في كم الخوف والرهبة والتعذيب التي تلقته

على جسدها العاجز، بسببي، وأنا أختبيء كالفئران في القبو.

لقد ذهبت أمي للأبد، ذهبت حتى بدون أن تراني، بدون أن تشعر أن ولدها بجانبها، ذهبتْ وهي لا تدري أنها تذهب.

ظللت بجانب القبر أدعو لها وأجلس بجانبها.

جاء الحاج "البوشي" ليخبرني أننا ذاهبون وهيا بنا، فرفضت.

قلت:

– سأظل هنا بجانبها، لن أتركها ثانية.

قال:

– يا بني أنت مؤمن، وقد اختارها اللّه لتسكن جانبه، لا تعترض.

قلت:

– لاااا.. لن أتحرك أبدًا، سأعيش هنا، اتركوني هنا.

ساعة مرّت عليهم وهم يحاولون إقناعي بلا جدوى، ثم تركوني أخيرًا على وعد بالرجوع في الغد.

أما أنا، فقد قرّرت أن أعيش بجانب القبر، إلى الأبد.

مرّت ليالٍ طوال وأنا أبكي، وأتكلّم معها باستمرار، أقتات على الفطير الذي يوزعّه الغفير يوميًا على أرواح المتوفين.

أيام تمر وأنا على حالي، لا أتحرّك، جاءني أهل الحي كثيراً، وأنا أرفض باستمرار، ليس لديّ أهل يهتمون ويسألون، وقد تُوفيت أمي بسببي، إذاً سألازم قبرها حتى أموت وأبعث معا لأعتذر لها.

مَرَّ شهر على هذا الحال، حتى أتى المعلّم إسلام ليقنعني بالعودة.. جاء ومعه طعام وفير، ثم إنه بصق على الأرض وردّد الدعاء للمتوفين ثم جلس بجانبي.

قال:

– إلى متى يا ابن الباشا؟ إلى متى ستظل هنا؟

قلت:

– إلى أن يتوفاني اللّه.

قال:

– حرام يا بني، ما تفعله بنفسك هو الحرام بذاته.

قلت:

– وما الحرام فيما أفعله؟

قال:

– اللّه قد وهبك الحياة لتعيش، ولا تقف الدنيا على وفاة أحد ما، عليك أن تتقبّل الأمر وتنسى.

قلت:

– لا لن أنسى، أمي لم تُتوفَّ في سريرها يا معلّم، أمي قد قتلها الحرس والحاشية بسببي.

تذكرت ثانية ما حدث ثم بكيت.

قال بهدوء:

– بني، عليك أن تعود معي، عليك أن تؤمن بقضاء اللّه وقدرِه، إنها سنّة الحياة.

قلت بغضب:

– لا يا معلّم، سأظل هنا.

ثم أشحت بوجهي بعيداً عنه، ظل بجانبي قليلًا ثم قال:

– حسنًا، هذا بعض الطعام، سأتركك قليلًا ثم أعود، وتعود معي.

قلت:

– ما الذي لا تفهمه يا معلّم في حديثي؟ قلت: لا، لن أعود، لن أبقى مكتوف اليدين هكذا وأنا لا أقدر على القصاص لها، لا أعرف حتى من قتلها ولماذا، سأظل هنا.

قال وقد شعر باللاجدوى:

– حسنًا، حسنًا كما تريد، سأعود قريبًا.

ثم تركني ورحل.

احتضنت شاهد القبر كالعادة ثم غططت في النوم.

مرّت بضعة أيام أخرى وأنا كما أنا، لا أقوم من جلستي قط، أكلّم أمي دائمًا، لا آكل أبدًا، وقد بدأ وزني في الانخفاض، ظللتُ هكذا.

قال القائم مقام:

– ثم ظللت هكذا وتوفيت هناك صح؟ وأنا الآن أكلم شبحًا؟

قلت:

– حسنًا، لن أكمل، أنا انتهيت.

قال القائم:

– ستكمل رغماً عنك وإلا بشرفي سأربط طرف السلك الكهربائي في خصيتك، وعندها ستتكلم حتى الموت.

قلت بضحك:

– أنا أقصّ حادث وفاة أغلى من في حياتي، وأنت كالحمار تنهّق بلا سبب، اتركني واحترم وفاتها على الأقل وإلا أنا من سأربط حبلًا من خصيتك إلى السيارة بالخارج واندفع للخارج، عندها أنت من ستكفّ عن الكلام للأبد.

صمت القائم مقام ثم قال:

– حسنًا سأصمت، أكمل.

قلت:

– لا لن أكمل،اعتبرها فترة استراحة، أنا أتكلّم منذ ليلة البارحة، أنا جوعان.

قال وقد استشاط غضبًا:

– أتريدني أن أشوي لك بعض اللحم؟

قلت:

– أوافق، وبعض الأرز والنبيذ الأحمر إذا سمحت.

قال:

– أعدك أنك ستأكلها قبل إعدامك، والآن أكمل.

قلت بلا اكتراث:

– لن أكمل إلا بعدما آكل شيئًا ما، والمدعوون كذلك يا باشا قد تعبوا، اتركهم يستريحون قليلًا، القليل والوقت لم يغير من مجريات التحقيق شيئًا ما.

قامت رفقة هانم من موضعها وقالت:

– أنا أؤيد ذلك الاقتراح، دعنا نستريح قليلًا، نأكل أي شيء ثم نكمل.

قال القائم مقام:

– ما هذا السخف؟ إنه تحقيق، وليس فيلمًا سينمائيًّا.

اقتربت رفقة هانم من القائم مقام وقالت:

– سخف؟ هل تعرف مع من تتحدث يا جناب القائم مقام؟ أنا رفقة هانم.

قال:

– معاذ اللّه يا هانم، لم أقصد، ولكننا بصدد التحقيق مع أخطر سفّاح في أرجاء المملكة، نحن كنّا نبحث عنه منذ عشر سنوات، نريد أن نعرف كل شيء ولا يوجد وقت، نريد اعترافاته كلها.

قالت:

– وسيقولها بعدما نأكل أي شيء، هو من قتل وليس نحن.

ثم إنها التفتت خلفها وقالت:

– مَن يوافقني يا هوانم؟

فرفع الكل أيديهم.

ضحكت أنا وقلت:

– هاهاهاها قلت لك يا جناب القائم مقام، نأكل أولًا.

قال:

– حسنًا، ولكني لن أحلّ وثاقك.

قلت:

– لا عليك، فقط أوصِ الشيف ببعض اللحم المشوي، وضعه أنت في فمي.

قال:

– سأحشره في فمك.

قال راسخ باشا من الخلف:

– ما هذا الهراء؟ هل نحن في رحلة ما؟ أكل وشراب؟ واستراحة؟

قال القائم مقام صائحًا:

– قلت هذا، ولكن رفقة هانم منعتني، الكل منعني يا جناب ولي العهد.

قال راسخ باشا:

– الكل وافق على هذا؟ أمممم حسنًا، فقط عشر دقائق لا أكثر.

ناديتُ بصوت عال:

– مَن يريد أن يذهب الى الحمّام فليذهب، فأنا لن أتوقف في المنتصف ثانية، اخرجوا لتغتسلوا.

ثم أكملت صائحًا:

– يا شيف، حضّر لنا بعض اللحم المشوي سريعًا.

ثم نظرت إلى القائم مقام وقلت:

– ولا تنسَ النبيذ.

ثم أشحت بنظري في غير اتجاهه.

مرّت الدقائق العشر، وقد انتهينا من الطعام كما تنتهي الريح الصفصاف العاتية من كفار الزمن البائد، حتى إنه لم يبقَ إلا بعض الأطباق الخزفية وبعض الأكواب، كأنها قافلة من الطعام لقبيلة في أمريكا الجنوبية، ويقولون عليَّ أنا السفّاح.

حسنًا، عندما فرغ الكل من الأكل وقضاء الحاجة، أكملت.

كما كنت أقول،كنت في هذه الآونة أشبه في هيئتي أعواد القصب في الحقول الزراعية، شيء نحيف جدًّا، مكتئب جدًا، لحيتي التي لا تنبت كاملة قد طالت، أظفاري طالت، رائحتي كانت كرائحة القبور حولي، شبه متوفَّى.

كانت أيامي مملة جدًّا، ولكني كنت لا أشعر بها، أتذكر همسات أمي، صوتها، أحلم بها، أستيقظ لأتخيلها، أنام ثانية لأحلم بها.

وكانت هناك سيدة مسنّة تعد لي الطعام والشراب كنوع من الشفقة، لم يتطوع أحد لمحادثتي فقد كان وجهي يوحي بالجنون فعلًا.

وحيداً كنت، حزينًا جدًّا، أوشك على الموت، أبكي أكثر مما أنام، وكنت قد نسيت كل شيء.

نسيت ميشو وديدي، نسيت العمل بدكان المعلم إسلام، نسيت حتى شاهندة، نسيت الكل.

كل ما كنت أتذكره هو أمي، أمي فقط.

مرّت الأيام والليالي، آنست الحيوانات الضارية مجلسي، تسامرت مع الذئاب والثعالب، صادقت الثعابين والحيّات، اندمجتُ مع رمال المقابر

وعناكبها وحشراتها حتى صرنا كيانًا واحدًا، أنا منه وهو مني.

جلستُ واستمعت لشكوى المعذبين تحت الأرض، ورأيت النعيم والجنان التي ينعمون بها، استمعت شكواهم، رأيت الغني والفقير وقد تساووا في المكانة تحت تراب الأرض، رأيت الغني والفقير يدفنون.

ولكن لا،حتى في المقابر هناك طبقات، هناك ذلك المدفن المزخرف لباشا من الباشاوات، وهناك ذلك الشاهد الضعيف المكتوب علية بالطبشور، حتى في الموت يفرّقون بين بعضهم البعض.

هؤلاء يسرقوننا، يقتلوننا، يستبيحوننا بلا توقف، بلا كلل ولا ملل، يأخذون كل شيء، حتى في الوفاة يجدون مدفن يوارون فيه سوءاتهم، النقود تصنع كل شيء، النفوذ تصنع كل شيء، كل شيء.

قال الحكماء من قبل إن النقود ليست كل شيء، ولكنني أراهم مخطئون.

النقود تؤمّن حياتك، حياة أطفالك، تؤمن علاجك، نفوذك، سلطاتك، نساءك، حتى في وفاتك توفّر لك المكان المناسب للدفن، أما الفقير فهو معذّب في

حياته ومماته، لا يجد الراحة أبدًا حيًّا ومُتوفّى، وقد كذب الأولون، نعم النقود هي كل شيء.

لم أدرِ وقتها كم مر من الزمن، فقط كنت أشعر بحرارة الجو، وهذا نذير الصيف، وأنا كنت رحلت في الشتاء، إذًا أنا هنا منذ شهور وربما أعوام ولا أدري.

قتل الحزن بداخلي رويدًا رويدًا، شيئًا فشيئًا اختفى الحزن وتحول إلى رغبة في الانتقام، رغبة في أن أذبح كل من كان السبب فيما وصلت إليه.

في ذلك اليوم، كنت كعادتي أستندُ بظهري إلى شاهد القبر، وأنام كالعادة بالرغم من الشمس الحارقة غير القابلة للنوم أبدًا، حدث ما لم أتوقعه قط.

جاءني في بادئ الأمر المعلّم إسلام،كعادته يحمل الطعام والشراب، ولكن هذه المرة كان يحمل بعض الملابس.

أيقظني من النوم, هززني فقال:

– يا بني، اصحَ، أريدك في شيء.

قلت:

– لا، لن أعود، وكفّ أرجوك عن إزعاجي.

قال وهو يبصق على الأرض:

– المرة الأولى يا بني التي تحادثني بلا احترام، ولكن نظرًا لظروفك لن أحاسبك الآن، والآن قُم.

قلت بغضب:

– قلت لا، لاا، لااا، ثم أشحتُ بوجهي بعيداً عنه.

قال وهو يوخذني بعصاه:

– ستستيقظ، وستستحم، وستلبس هذه الملابس النظيفة، فأنا عندي لك مفاجأة سارة.

لم أرد عليه، ولم أعتدل حتى، فقال وهو يضحك:

– ستزورك اليوم.

اعتدلت قليلًا وقلت:

– مَن؟ لا أريد زياراتٍ.

قال: ستندهش يا بني،

– هل تعلم من أقصد؟

قلت:

– لا، ولا أريد.

قال:

– حسنًا إذًا، سأخبر الأميرة شاهندة إذًا أنك لن...

قمتُ من مجلسي سريعًا وأنا أصرخ:

– شاهندة؟ ما الذي سيأتي بها الآن؟

ثم خطفت منه الملابس سريعًا، ثم توقّفت وأعطيته إياها ثانية.

قلت:

– لا، لا أريد، لا أريد أي شيء من تلك الدنيا، أنا فعلًا لا أريد.

قال:

– بل تريد يا بني، وعليك أن تتقبّل الأمر الواقع، هذا أمر اللّه.

قلت له وأنا اقترب من وجهه:

– أمر اللّه؟ هل أمر اللّه أن تتعذّب أمي وتموت بلا أي جريمة تذكر؟ هل أمر اللّه هو أن يُقتل صديقي وخطيبته في ريعان شبابهما من أجل تسلُّل بسيط؟ هل هذا أمر اللّه؟

قال:

– استغفر ربّك يا بني، لا تكفر باللّه، اعلم أن حزنك لن يغيّر من الواقع شيئًا، وعليك أن تتقبّله.

قلت:

– عندما يكون من صُنع اللّه أتقبّله يا معلّم، ولكنه من صنع بعض الباشاوات، وأنا أقسمت على الموت هنا بجانب أمي أو الانتقام.

قال:

– حسنًا، إن أردت الانتقام فلتنتقم إذًا، ولكن الآن، عليك أن تستقبل الأميرة شاهندة، هي قادمة إليك.

قلت بحيرة:

– صحيح، كيف عرفت أنها آتية؟ ما الذي حدث؟

قال:

– اليوم صباحًا، أتت إلى الحي وكانت تحمل القلادة التي أعطيتك إياها، المانجو، وكانت تسأل إن كان أحداً يعرف صاحبها، فقصصت عليها كل شيء.

قلت:

– لماذا يا معلّم؟ لماذا قلت لها؟ ربما تريد تسليمي إلى الحرس الآن، ربما سيتم القبض علينا حالًا.

قال:

– لا تخف، أنا قد استمعتُ لها قبل أن آتي لك، هي تريدك يا ابن الباشا، تريد أن تتحدّث معك مثلما أنا أريد أن أتحدّث معك.

قلت:

– أنت تتحدث معي الآن يا معلّم إسلام.

قال:

– لا، ليس هذا ما أقصده، أريد أن أتحدّث معك فعلًا، حديثًا طويلًا، ولن يكون الآن، إنما سيكون بعدما ترجع معنا يا ابن الباشا.

قلت:

– ومن قال إني سأرجع؟

قال:

– سترجع، إن شاهندة تحبّك مثلما تحبّها يا بني،لقد رأيتُ الشغف في عينها، رأيته وأنا أعرف الحب.

قلت وأنا أبتسم:

– أنت تعرف الحب يا معلم؟ ماذا أحببت؟ إحدى المومياوات؟ ربما، لقد رأيتُ نظراتك المريبة لإحدى المومياوات من قبل.

قال وهو يضحك:

– اللّه يحظّك يا بني.

سعل ثم بصق.

– دائمًا تُضحكني هكذا، ولكن لا، أنت لا تدري أي شيء، لقد أحببتُ من قبل، ورأيت الحب في عينها أيضًا، وتهامسنا وتعانقنا، ثم...

صمت لبرهة ثم قال:

– ثم إنها رحلت وتركتني في الدنيا وحدي، وأقسمتُ ألا أحب ثانية وألّا أتزوج.

فجأة وجدت نفسي أُربّت على ظهره وأنا أحاول تهدئته، أما هو فكانت عيناه تدمعان قليلًا، ولكن يحاول أن يُخبئ مشاعرة عني.

قلت:

– حسنًا، حسنًا، ومتى ستأتي؟

قال:

– هي كانت ورائي، ستظهر في أي لحظة.

مرّت ثوانٍ، ثم إنها ظهرت، ملاك يسير على الأرض، قطعة ثلج ترتدي السواد فيجعلها فاتنة أكثر وأكثر، لم تخلق أدوات التجميل لتزيين هذا الوجه مطلقًا، هذا الوجه خُلق بأدوات تجميله، آه يا قلبي.

تناسيتُ كل شيء لحظةً، وأنا أراها تترجّل من سيارتها، وهي تضع اليشمك الأسود على وجهها، وتقترب، تقترب أكثر فأكثر.

كانت تدوس على الرمال ولا تترك علامات لقدميها، حتى الرمال لا تشعر بها، يا لرقتها!

كانت تقترب أكثر وتبتسم أكثر، هذه ليست بشرية أبداً، مستحيل.

اقتربت مني وهي حزينة، تداري ابتسامتها برؤيتي، ثم يغلب على وجهها الحزن.

اقتربت وقالت بصوت تهتز له أوتار العود:

– البقاء للّه يا شاكر.

قلت:

– ونعم باللّه، البقاء للّه لك أيضًا.

قالت:

– ونعم باللّه، أعرف أنه ليس خطأك،ولم أتكلم يا شاكر، لا تقلق.

قلت:

– أنا غير قلق أبداً، أنا حزين.

ثم إنني نظرت بالخلف فوجدت المعلّم إسلام ينصت لنا ويبتسم.

قلت له:

– معلّم إسلام، ألا تتذكر أي شيء لتأتي به؟

قال مُحاولًا التذكر، ثم إنه فهم:

– حسنًا، حسنًا، سأحضر أي شيء وآتي على الفور.

ثم ابتسم ابتسامة مفهومة وغادر.

يا لك من ساذج وقديم يا معلّم إسلام.

أكملت لها:

– أنا حزين أنني كنت السبب في قتل أمي رحمها الله.

قالت وهي تنظر إلى الأرض:

– رحمها الله، إنه ليس ذنبك يا شاكر، هؤلاء لا يوجد قانون لردعهم.

قلت:

– الله فوق كل شيء يا سمو الأميرة، وكيف عرفتِ اسمي؟

قالت:

– سألت المعلّم إسلام، وهو من أخبرني لي.

قلت باستغراب:

– صحيح، لماذا بحثتِ عني؟ لماذا أتيتِ؟

قالت بحزن:

– ألا تريد أن تراني يا شاكر؟

قلت بشغفٍ:

– بالطبع أريد، أريد أن أراكِ في كل لحظة، في كل ثانية، ولكني أريد أن أعرف السبب.

قالت:

– لأنك أهديتني هدية قيّمة، ومن شيم النبلاء أن يردّون الهدية بمثلها.

أخرجت من جعبتها قلادة عليها صورتها، وأعطتني إياها، وابتسمت وقالت:

– هذه ستجعلك تراني دائمًا.

كنت أنا اشعر بأشياء غريبة في نفس الوقت، ما الذي حدث جعلها تنظر وتشتاق لي؟ هل كانت

تحبّني أو تفكّر في مثلما كنت أفعل؟ هل فجأة أحبتني؟

وكأنها رأت التساؤلات في عيني فقالت:

– نعم يا شاكر، أنا أيضًا لم أنسك يومها، لم أنس ذلك الطفل الذي أهداني ثمرة المانجو، لم أنسَ من حاولوا قتله، وبكيت كثيرًا، وعندما رأيتُك يوم الحفل تفاجأت ولم أعرف كيف أرد أيضًا، ولكني استجمعت كل شيء الآن، وقررت أن أقابلك وأقول لك أيضًا، إنني لم أنسَك لحظة.

يا إلهي إنه حلم! حلم بالفعل، هذا خيال، أظنّ أنني أحلم الآن بجانب قبر أمي وسأستيقظ في أي وقت.

قالت شيئًا لم أتوقعه:

– أعرف انه جنون، وأنني قد أحبس بعدها إذا ما عرف أحد ما، ولكن...

ثم إنها حضنتني.

آآآآه يا قلبي، ما هذا الذي أشعر به؟ كم الدفء، كم الأمان، الطمأنينة، السلام النفسي، الشلل التام في أطرافي، لم أتوقع قط أنني في يوم ما سأقترب منها إلى هذا الحد، ولكنه يحدث الآن.

وجدت يدي تهتز محاولة رفعها لأرد لها الحضن، وبالفعل، لامست يداي ظهرها، أشم رائحتها فعلًا، رأسها على صدري أنا، أنا خاصة.

وجدتُ نفسي أبكي، أبكي بلا توقف، أبكي وأغرّقها بدموعي، فبكت هي أيضًا.

ظللنا حوالي نصف الساعة على ذلك الوضع، نبكي ونحتضن بعضنا البعض، لا نتكلّم أبدًا، يبدو أنها كانت قد وجدت الأمان أخيرًا، وأنا أيضًا، وجدت نفسي بداخلها، لم أرزق بإخوة قط، ولا حبيبة ولا أي شيء، والآن أفهم، ذلك الإحساس بالأمان، بالحب، بكل شيء.

ذلك الحضن يستطيع جعل المريض يُشفى، يستطيع أن يعطيك أملًا في الغد، في استكمال كل مشاريعك غير المكتملة، جرعة ضخمة من المهدئات لا تقارن بحضن كهذا.

اعتدلنا، وكنت أنا قد نسيت كل شيء، حتى الرغبة في الانتقام انطفأت، كل النار تصير رماد في نهاية الأمر.

قالت:

– ستعود، وستكمل حياتك يا أميري، وستعمل جاهداً على أن يجمعنا بيت واحد في النهاية، وأنا أيضًا سأفعل.

قلت:

– أعدك، سأعود، وإن اضطررت أن أصير باشا مثلهم سأفعل، ولكن عديني أن تنتظريني.

قالت:

– أعدك.

نظرت إلى ساعتها الذهبية, وقالت:

– عليّ أن أرحل، أنا خرجت بدون علم الحاشية وسيقتلونني إن عرفوا أنني قد خرجت.

قلت:

– وكيف سأصل لك؟

قالت:

– رقم هاتفي خلف القلادة، رقم هاتفي الشخصي، رقم خاص بك أنت، سأنتظرك.

ثم إنها ابتسمت، وببطء شديد أشاحت بوجهها في اتجاه السيارة.

وغادرت، وكنتُ أشاهِدُ ابتعادها كما أشاهد الغروب، بالنسبة لي هي الشمس التي أنارت حياتي.

هي كل شيء، ورحيلها هو رحيل للشمس، إنه الليل إذاً.

اقترب المعلّم إسلام مني وهو يبتسم ويقول:

– ما رأيك في المفاجأة؟ الا أستحقُّ مكافأة أنا أيضًا؟

اقتربت منه وقبّلته فضحك كثيرًا حتى بصق على الأرض كعادته.

نظرت إلى قبر أمي.. نظرتُ مطولًا ثم قلت:

– اعذريني يا أماه، سأعود، أعدك، لا تقلقي سأعود بعدما آخذ حقك، وسأفعل.

حضنت الشاهد لآخر مرة، وغادرت أنا والمعلّم.

كنتُ قد قررت أن أنسى الانتقام قليلًا الآن، حتى المملكة كانت قد تناسيت الحادث، واعتبروها ضد

مجهول، ثم إنهم تناسوا كل شيء وعادت الأمور لمجرياتها.

وظننت أن الأمر انتهى عند هذا الحد، ويا ليته انتهى.

٩

عام ٢٠١٠ – لندن ٢٣ يوليو

مَرَّ على الحادث أربعة أعوام، سار عمري خمسةً وعشرين عامًا، أحداث كثيرة مرت عليَّ وعلى المملكة في ذلك الزمان، حتى وجهي قد تغيّر، طال شعري وقامتي، حتى أحاسيسي ومشاعري قد تغيرت، تنحّى الملك أحمد فؤاد الثاني عن الحكم لولده محمد على الثاني، وسافر إلى إيطاليا ليعيش فيها.

وقد تنحّى نتيجة ملف يسمى "فساد الولاة" وهي قصة يطول شرحها، مفادها أن بعض الولاة على ولايات المملكة قد اتهموا بسرقة ما مجموعة ثلاثة تريليون جنيه، وهو رقم مهول، مهول جدًّا.

ثم إن هذه القضية ارتبطت بقضايا كثر منها قضيتي الشخصية "قضية ثمرة المانجو" كما أسموها، والتي راح ضحيتها ما يقارب الألف مشتبة به، بين قتيل ومعذّب وجريح.

ثم توالت الأحداث، وحاول الجيش الانقلاب على السلطة ثانية كما فعلوها من قبل، ولكن فشلوا فشلًا ذريعًا.

الأجواء بداخل القصر كانت متوترة جدًا، خاف الكل من تكرار ما حدث من قبل فازدادوا حرصًا، وازدادوا فسادًا وسرقة.

حتى سارت السرقة تتم بشكل علني، الفساد ازداد بشكل ملحوظ، والجرائم كذلك، جرائم الجوع من سرقة ونشل وخلافه.

سار الوضع جنونيًا آنذاك، اختفت الطبقة الوسطى نهائيًا، سار المجتمع ما بين طبقة أرستقراطية وبروليتاريا، حاشية وباشاوات وبكوات في طبقة، وعامة الشعب في طبقة أخرى.

الأغنياء استقلّوا بأنفسهم في مدن مغلقة بأسوار وأسوار، وعامة الشعب يقتاتون على الفتات.

حرّمت القاهرة على الفقراء، سارت مدينة الأغنياء فقط، الوضع سار جنونيًا.

في تلك الأثناء كنتُ أنا مشغولًا بشيء بعيد كل البعد عن السياسة، تناسيت الانتقام قليلًا حتى يتسنّى لي الوصول إلى الأرستقراطية مثلهم، حتى أصير (بك) وباشا مثلهم تمامًا، عندها أنتقم ولا يشك فيَّ أحد، عندها أصل إلى مبتغاي.

أخذت الراية من المعلّم إسلام، وتسلّمت العمل، وكان جل عملي في تهريب الآثار.

قال القائم مقام:

– تهريب الآثار؟ قاتل وخائن للوطن يا بك.

قلت:

– ومَن منّا لا يخون وطنه؟ وأي مسمى هو الوطن؟ إن الوطنية مصطلح من صنع الباشاوات لتكون المبرر لكل شيء، للغني وهو يسرق الفقير، للحرس حين يقتلون المعارضة، للإعلاميين حين يسبّون كل من يقول لا، إنها الوطنية الزائفة سيدي.

قال بغضب:

– لا، لا تقل هذا، أنت فقط تقول هذا لتبرر موقفك.

قلت:

– ربما، ولكني لا أبرر أي شيء، كم من فاسد خطب في الشعب وصال وجال من أجل التقشّف، وهو يغضب ويزمجر حين لا يأتيه النبيذ باردًا! كم من باشا طالبنا بربط الحزام حتى يتسنّى له السفر خارج البلاد! إنه الفساد في أوج عصوره.

قال:

– دعنا من هذه المهاترات التي بلا فائدة، لا تصنع من نفسك أدهم الشرقاوي آخر، أنت فقط مجرّد مستفيد وقاتل محترف.

قلت:

– حسنًا، حسنًا، ولكن لا تحاسبني على بيع بعض التماثيل والمومياوات لأغتني، أنا فقط أردت أن أعيش.

ثم أشحتُ بنظري في غير اتجاهه وأكملت:

– كان المعلّم إسلام يمتلك ثروة حقًّا، ثروة لا تقدّر بملايين الجنيهات، ولكنه كان لا يدري كيف يستفيد منها.. كان يمتلك الكنز ولا يمتلك المشتري، وهذا ما عملت عليه في تلك السنوات.

في بادىء الأمر، كان العمل محليًا، أبيع بعض التماثيل الصغيرة للتجار والبكوات.. ثم تطوّر الأمر رويداً رويداً، حتى تعرّفت إلى المورد الأساسي للعمل.. السير ألكساندر بوتون، سير إنجليزي يتاجر في الآثار.. كان على علاقة وطيدة بالباشاوات في مصر، ويسهّلون له العمل في أي شيء بمقابل مادي، وقد تعرّفت إليه من خلال أشرف بك الدميري.

قال القائم مقام:

– ومَن أشرف بك الدميري؟ هل هو صديقك؟

قلت:

– هاهاهاها صديقي؟أنا لم أتعرّف إلى أفندي طوال حياتي السابقة، أشرف بك هو صاحب بازارات مصر كلها، حكر لديه، وقد عرفته من خلال المعلّم إسلام الذي كان يشاركه بعض التماثيل في مقابل مادي طفيف، ولكنه يفي بالغرض.

أشرف بك كان من حيّنا حتى رزقة اللّه من وسع رزقة، تعرّف إلى صفوة المملكة، وتصاعد على أكتافهم، ومن ثم افتتح البازارات في كل حي في مصر، عند الأهرامات، وفي ميدان المملكة، وحتى بجانب القصر، وفي أقصى الحدود الملكية.

تعرّفتُ إليه من خلال عملي مع المعلّم إسلام، ومع الوقت وبعدما وضع ثقته كاملة فيّ، ورأى حماستي في العمل سرنا شبه صديقين، عرّفني إلى طريق السير وكيفية الوصول إليه، وهو طريق لم يكن سهلًا أبدًا.

ولكن كان عليّ الابتعاد قليلًا، عليّ أن أتوارى، إذا انكشف أمري فلن أعيش يوم واحدًا بعدها،

سيكون قتلي أسهل ما يمكن، بل أسهل من غليان الماء.

وصلتُ إلى لندن، وقررتُ أن أبدأ حياة جديدة بعيداً عن كل شيء، عن قتل أمي، عن المملكة، عن الحي والقصر والقتل وكل شيء، وفي خلال سنوات، كنتُ قد بعثتُ ما يقارب نصف ما في المقبرة، وتم تخريجهم إلى خارج حدود المملكة بالرشاوى والفهلوة، وصلوا جميعًا إلى أوروبا بالتحديد في لندن عند السير.

كان السير لطيفًا إلى أقصى حد، كان تعاملي معه في البداية صعب جدّاً حيث إنني لا أفقه إلا اللغة المصرية فقط، أما الإنجليزية فلا، كنت أتعامل معه بالإشارة وبعض الكلمات في البداية، وهو كان يعرف بعض العربية فكان الأمر مقبولًا إلى حدٍّ ما.

كان ودوداً جدّاً، شديداً جدّاً كأي نبيل أوروبي، ولكن ما إن تعرفه حق المعرفة يصير كأقرب الأصدقاء لك.

وأنا تربية الحي الشعبي، وكما يقولون: "من ترعرع في حي شعبي سهل علية التعامل مع كل أنواع البشر".

وهذا ما استطعتُ أن أُجيده في العاصمة الإنجليزية، مع الوقت صار يثق بي كثيراً، عرض عليَّ أن أبقى في لندن لأعمل لديه، وقد وافقت، ففكرة العودة إلى المملكة كانت بعيدة جدًا في مثل هذه الأوقات، خلافات وتغيّرات في القصر، إعادة فتح الكثير من القضايا المنسية منها قضيتي، ونفسي المتقلّبة أيضًا، لقد بدأت في نسيان كل شيء.

مرّت عدة أعوام، كان العام كما قلنا هو ٢٠١٠، وقد سرت أتقن الإنجليزية الأرستقراطية بشكل كبير، سرتُ فرداً من عائلة السير الصغيرة.

وريداً رويداً صرتُ مدير كل أعماله في العالم أجمعه، كنتُ أُدير الكثير من الشركات والفنادق الخاصة بالسير، وهو لم يكن له ذكور فكان يعاملني كابن له، جمعت الكثير من الأموال، صار لديَّ شركة صغيرة خاصة بي بدعم بسيط من السير، شركة باسم " شاكر أبو العزايم".

كنت بالفعل أنسى كل ما يتعلّق بالمملكة إلا شيئًا واحداً لا يفارق خيالي أبداً، شاهندة، كنت أُحادثها بين الحين والآخر، فقد كان معي رقم الهاتف على ظهر القلادة التي كانت تحتضن رقبتي دائمًا، أنظرُ إلى صورتها وأهيم بها عشقًا.

وفي نفس الوقت كنتُ أحاول أن أنساها ولا أقدر، الحب هو شيء مستحيل على المرء إدراكه أو تكبيله أبداً، شيء يسيطر على وجدانك بمعنى الكلمة.

كانوا يقولون دائمًا إن نسيان الحب الأول صعب، وأنا أقول إنّه مستحيل وليس صعبًا، إنه أول شعور بالدفء في حياتك، أول شعور بالحنين، بالشوق، بكل شيء.

كيف تقدر على نسيان كل هذا من أجل بعض العواقب الاجتماعية الفانية؟ الحب دائمًا ما يبقى وإن أبى البشر كلهم، وإن اجتمعوا على نسيانه، الحل الوحيد هو طعن قلبك بسيف حاد حتى يكفّ عن الضجيج، عندها فقط تنسى.

وهذا ما لم أقدر عليه قط.

في ذلك العام كنتُ أُحاول محادثتها كثيرًا بلا إجابة منها، كانت تتهرب من محادثتي، لا أعلم لماذا، وراودني القلق.

ثم كانت الطامة الكبرى،مرض المعلّم إسلام، مرض مرضًا شديداً، وكنت أستشعر أنها ستكون نهايته، وقد طلب رؤيتي قبل أن يحدث أي شيء، عند هذا

الحد قررت العودة، نعم سأعود إلى المملكة، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

كان طلب المعلّم إسلام كالنداء لي بالعودة، وكنت أنا قد حاولت نسيان كل شيء، ولكنه القدر، القدر دائمًا ما يقودنا إلى مصائرنا مهما نحاول الفرار.

هو سيناريو إلهي لا تستطيع فيه الارتجال، الالتزام بدورك فيه ولا تقدر على الخروج عنه، وكان قد قدّر لي العودة، ولم أكن أعلم ما ينتظرني وقتها.

قابلت السير في مكتبه في لندن، وطلبت منه الرجوع إلى مصر.

في البداية لم يوافق قط، رفض حتى محاولة التفاهم.

ثم إنني أقنعته وقصصت عليه كل شيء، شاهندة والحادث وكل شيء، أخيرًا اقتنع، ثم إنّه قرر أن يتركني أرجع إلى مصر بعد أن أصفّى أعمالي معه، وكان قد حضّر لي مفاجأة لم أكن أتوقعها قط.

حضرت إلى مكتبه قبل رحيلي بأيام، طلب أن يراني فأجبت.

كان يجلس على مقعده الوثير يدخّن السيجار الفخم ويتجرّع كأسًا من النبيذ الأحمر في هدوء ورصانة كعهدي به.

طرقت الباب لأعلمه بوصولي فأشرق وجهه ودعاني للجلوس.

جلست وقلت له:

– طلبت رؤيتي سير ألكساندر.

قال:

– نعم أريدك في شيء مهم.

قلت:

– خيرًا، سيدي.

قال:

– لقد سعدتُ بالعمل مع شاب مجتهد مثلك يا شاكر، وقد عزّ عليّ فِراقك هكذا.

قلت:

– يومًا ما سأعود يا سيدي،فأنا مع تقديري لسيادتك كوالد لي..

قال:

– يعلم الرب أنك أنت أيضًا كنت ابنًا لي، وسفرك بالنسبة لي هو فراق أب لابنه، وأنا قد شارفتُ على الموت.

قلت في قلق:

– لا تقل هذا يا سيدي، بالتأكيد سآتي وسأراك لا تقلق.

قال:

– ليس بالأمر الجلل، حسنًا أريدك في شيء آخر، قبل أن ترحل يا بني، لك عندي مفاجأة قد تسرّك.

قلت:

– لا أريد أي شيء سيدي، فقط أريدك جزءًا من حياتي وعائلتي، لا أكثر ولا أقل.

قال:

– وستظل يا بني، اسمع فقط.

ثم أخرجَ بعض الوثائق من مكتبه،وأعطاني إياها أخذتها وتفحّصتها ولم أفهم شيئًا.

قلت باندهاش:

– ما هذا سيدي؟

قال وهو يبتسم:

– بعض المفاجآت يا بني.

أضاف:

– أول شيء، أنت الآن تمتلك شركة كبيرة في المملكة المصرية، شركة أبو العزايم الخاصة بك صارت من أكبر الشركات في مصر، أنت الآن تمتلك مبنى كبيرًا به مئات العمّال برأس مالٍ كبير، وهذا يقودنا إلى الأمر الثاني.

فتحتُ فمي وأنا غير مصدّقٍ كل هذا، لقد كانت شركة صغيرة جدّا بعمالة لا تتعدّى الثلاثة أشخاص، والآن يقول إنها مجموعة من الشركات.

قلت:

– هذا كثير، كثير جدّا.

أضاف:

– الأمر الثاني، رأس المال، أنت ساعدتني في ازدياد ثروتي إلى الأضعاف، لولا التماثيل ومجهودك لما كوّنت كل هذه الثروة، ولم أكن سأفعل لك أي شيء إذا ظللت هنا، ولكنك مغادر، ولهذا فستجد رقم حساب بنكي برصيد مليون جنيه مصري.

وقفت مندهشًا وقلت:

– لا، ليس كل هذا.

قال:

– أنت تستحقّ يا شاكر، أنا لا أعطيك هبة مني، هذا عملك، حقّك.

لم أعلّق بل ظللت مشغولًا لا أدري لِمَ كل هذا.

قال:

– أما الورقة الثالثة فهي مفاجأة كنتُ سأفاجئك بها منذ شهرين، ولكن لم تأتِ مناسبة لذلك.

نظرتُ إلى الورقة الثالثة، كان صكًّا ملكيًّا، قرأت ثم نظرت له وأنا أبتسم.. قال:

– مبارك يا شاكر بك.

قالها بالعربية الركيكة التي دائمًا ما يتحدّث بها.

قال:

– نعم، لقد طلبت من القصر الملكي في مصر إعطائك لقب بك وقد جاوبوني بالموافقة، وها هو المرسوم بين يديك، أنت الآن بك يا شاكر بك.

نظرت له وبكيت، بكيت كثيرًا.. أمسك يدي ثم قام وربّت على ظهري محاولًا تهدئتي.

ثم قال في حنان بالغ:

– هذا نتاج عملك يا شاكر، أنت كنت مجتهداً، وأنا لا أُكافئك، هذا عملك أنت، أتمنى لك من كل قلبي النجاح فيما أنت مُقبلٌ عليه.

قمت واحتضنته، فبادلني العناق، ثم ودّعته، قبل أن أرحل قال:

– شاكر، شركتك في مصر تعمل جيداً، ولديها توكيل الهواتف الذكية الذي ظهر في أمريكا منذ عامين، أوصيك أن تهتم بالعمل عليه، فستكون مُحتكرًا له عمّا قريب.

قلت:

– لا تقلق سير أليكس، أنا لها، أشكرك من كل قلبي.

رحلت، وبعد أيام كنتُ قد صفيتُ أعمالي في لندن، وهممت بالرحيل.

عدتُ وأنا ذات الشخص، الشخص الذي رحل عنها هاربًا من الانتقام، هاربًا من القتل، الصعلوك الذي قتلوا والدته.

كنت قد رحلتُ إلى لندن على طائرة رخيصة بلا نقود في جيبي، والآن أعود على طائرة إنجليزية خاصة.

لم أكن أعلم ان البكوات والباشاوات لهم مراسم خاصة في الاستقبال عند عودتهم من الخارج، وقد تفاجأتُ حين خطوتُ إلى أرض مصر أن رؤساء الحكومة ومعهم بعض الحرس يستقبلونني بشغف، يستقبلونني استقبال الفاتحين كما يقول العرب.

تنتظرني حياة رغدة بالفعل، أو هكذا حسبتُ.

ولكن أمي المقتولة لم أنسَها قط، وشاهندة، على الأقل سأقابل شاهندة بصفة رسمية الآن، فأنا الآن بك ولي كل الحقوق في دخول القصر ومقابلة الشخصيات رفيعة المستوى، أنا فرد منهم الآن.

وصلتُ إلى مصر لأجد كما قلت استقبالًا حافلًا، ودّعتهم، ثم وجدت أن هناك سيارة خاصة بي تنتظرني، لم أكن أعرف أن البكوات والباشاوات لديهم كل هذا، يصرفون لهم سيارات ومواكب بالآلاف ونحن كنا نقتات على بواقي حفلاتهم.

ثم ابتسمت.

قال القائم مقام مقاطعًا:

– كل هذا جميل يا بك، ولكن ما تقصّه الآن لا علاقة له بكل جرائمك، لا علاقة له بجنونك الذي أراه الآن، أين كانت نقطة التحوّل؟

قلت:

– لا دخل لك بها، أقصُّ ما أريد قصّه، وقد طلبت منك ألا تقاطعني، صحيح؟

هنا تدخّل الأمير راسخ صارخًا:

– يا ابن العاهرة، ألم أقل تتكلّم؟ نحن لسنا رهن إشارتك، أكمل ما تريد قوله سريعًا و إلا...

هنا، ترك العرش في العلية وفي عصبية بالغة نزع طربوشه وألقاه بعيداً وهي حركة متبوعة وقتها للحرب أو علامة على العراك.

ثم أخرج طبنجة ذهبية من طيات ملابسه وعمّرها وقفز فوقي ليأخذني فأسقط بالمقعد إلى الوراء وهو فوقي.. ثم وجّه فوهة الطبنجة إلى رأسي، وقال:

– نحن لسنا هنا للاستماع إلى قصص أمّك، لا تختبر صبري، قل لي يا تافه.. لماذا قتلت الباشاوات؟

لم أتكلّم فلكمني بظهر الطبنجة في وجهي فانفتح حاجبي لتسيل الدماء، ثم بدأ في خنقي، صرخ البعض:

– لا يا باشا، أرجوك.

ثم إن القائم مقام أمسك بيد الأمير وجذبه بعيداً وهو يقول:

– أرجوك فخامتك، نحن نريده حيّا، أرجوك.

ظلّ متمسّكًا بعنقي قليلًا، وأنا أتحشرج ولا أقدر على المقاومة، حتى كدت أختنقُ، ثم تركني في النهاية.

بصق عليّ، وهو يقول:

– ابن الخادمة هذا يتلاعب بأعصابنا، أقسمُ باللّه سأقتله إن أصرّ على اتباع هذا الأسلوب.

ابتعد قليلًا وهو يلهث.

ضحكت،ضحكت كثيرًا ضحكتي الجنونية حتى بدأ الجميع في الخوف.. قلت وأنا أضحك:

– تلهث؟ تلهث لأنك حاولت خنقي؟ يا لك من أغا.

ثم أكملت ضحكًا.

استشاط غضبًا وحاول مهاجمتي ثانية، ولكن منعه القائم مقام من المهاجمة ثانية.

قلت بسوقية بالغة:

– وشرف أمّك يا راسخ لسوف أجعلك تندم على ما فعلت.

* * *

ساحر الكتب

١٠

كان الصباح قد أشرق، والشمس تظهر رويداً رويداً من الأفق لتنبئ بيوم جديد، ليس سعيداً عليّ للأسف، وأنا مُكبّل منذ البارحة كالخراف، والدم يغطّي وجهي بأكمله، ولكني لا أكترث، لحظات التشفّي هي كلحظات الانتشاء تماماً، متعة غير عادية وإن كنت أنا من أتألم خارجيّا، ولكن كل شخص بينهم يتألم داخليّا أكثر مني ألف مرّة.

قال القائم مقام:

– هل ستُكمل يا شاكر بك؟

قلت:

– نعم سأكمل، ولكن أنت تعرف، أريد بعض المياه.

أشار القائم مقام الى الحرس فأحضروا دورقًا من المياه، فحمله القائم مقام وسقاني، ثم طلبت منه إلقاء بعضها على وجهي ففعل، كنت أريدُ أن أرى، فالدماء كانت تعوقُني عن النظر جيداً. ثم شرعت أكمل:

– بعدما فرغت من مراسم الاحتفال التي لم أكن أتوقع حدوثها مطلقاً، وجدت من يقودني إلى

السيارة التي صارت ملكي فجأة بدون أن أعلم، طلبت منه التوجه إلى حيي القديم، أريد أن أقابل المعلّم إسلام أولًا، أريدُ أن أطمئن عليه.

لم أخبر أحدًا بخبر عودتي بالطبع، وشاهندة كنتُ قد مَلّلت من عدم إجابتها مهاتفاتي، فقرّرت أن أكف عن محادثتها.

وصلت الحي القديم، وقد تغيّر تمامًا، صار أكثر فقرًا مما تركته مسبقًا، لا يضحك أحد مطلقًا، الكل مكفهر الوجه، الإرهاق هو المسيطر على الكل، كثير من الدكاكين والمواخير قد أقفل بابها، يبدو أن الحرس قد جنّوا.

أو ازدادت الضرائب لا أعلم، فقط هم يشعرون دائمًا أن هناك مؤامرة تُحاك عليهم من الفقراء، فيستمرون في اضطهادهم واستعبادهم بلا أدنى إحساس بالذنب.

صار العمل إجباريًّا، يسوقونهم كالأنعام، يجلدونهم بلا شفقة ولا رحمة، صاروا يخدمون في القصر الملكي طوال اليوم بلا أجرٍ، فقط حتى لا يواجهوا عقوبة الإعدام أو على أقل تقدير الجَلْد.

الدماء تسيل في كل ركن من أركان الأحياء، الناس يخافون، يتوارون خلف كل شجرة، خلف كل صخرة،

إذا ما أمسك بهم أحد الحرس فهم يساقون إلى العمل بلا رحمة.

لا يُفرّقون بين امرأة وشيخ وطفل، كما لو كان الملك قد علم أنه عليه كسر شوكتهم حتى لا تتكرر حادثة قتل الباشا ثانية، وقد حزنت كثيراً لما آلت إليه الأمور في أرجاء المملكة، اتجهت إلى دكان المعلّم إسلام أملًا في التغيير والاسترخاء قليلًا، وكنت أحمل الحقيبة فأنا لم أسترح منذ وصولي.

لم أقابل أيّا من معارفي طوال الطريق، وهذا ما كان يثير شكوكي.

حتى منزل والدتي كان المدخل مسدوداً بالقمامة، ويبدو أن الحرس قد منعوا دخوله تماماً.

عند باب الدُكّان على حدود الحارة، كانت القمامة تغطّي كل شيء، أكوام من القمامة والأتربة وكأن مذبحة قد قامت في هذه الأرجاء.

نظرتُ إلى باب الدكان القديم ثم شعرت بالحنين إلى كل شيء.

الحنين إلى طفولتي، شبابي، أصدقائي رحمهم اللّه، شاهندة، القصر، ثمرة المانجو، كل شيء.

طرقت الباب في هدوء فاهتزّ على طرقاتي، وكأن اهتزازات قبضتي قد حرّكت أحاسيس الباب فتساقطت ذرات الرمال وصنعت بعض الأتربة وكأنه باب مقبرة، الأمر الذي جعلني أسعلُ كثيرًا حين استنشقتُه.

سعلتُ وبصقت، ثم إنني أعدت الطرق ثانية بلا إجابة، ولم يكن هناك أحدًا يمر في الحي أو على حدوده وكأن الطاعون قد انتشر في المدينة فقتل ساكنيها، لاحظت أن باب الدكّان ليس موصدًا جيدًا، بقليل من الجهد استطعت فتحه، رائحة العطن كانت تغطّي كل شيء، الظلام والأتربة، يبدو أن المعلّم إسلام لم يفتتح دكّانه منذ رحيلي.

بحثت عنه ولم أجده.. فقرّرتُ أن أنزل المقبرة عسى أن أجده بها.

أوصدّت الباب وأشعلتُ شمعة كما هي العادة..ثم سرتُ إلى الداخل، كنت أسمع صوتًا غريبًا يقترب كلّما قاربت المسافة، يزداد مع تقدّمي أكثر، وهو ما جعلني أسرع في خطواتي قليلًا.

ما إن وصلت حتى رأيت المعلّم إسلام ينازع الموت، أو يكاد، كان مُمدّدًا على ظهره ومما حوله فإنه لم يقم من مكانه قط، بواقي الأطعمة بجانبه، وهو

يتأوّه كقط جريح، لقد كان جريحًا بالفعل، ركضتُ لأساعده وأنا كلّي توتر، وتساؤلات.

نظرت إليه أتفحّصه، وضعت يدي على ظهره فصرخ متحشرجًا، نزعتُ يدي سريعًا وأنا لا أفهم شيئًا.

أشار لي أنه يريد أن يشرب بعض المياه، فأحضرت له بعضًا منها فشرب وارتوى، ثم حاول الاعتدال بصعوبة بالغة، وعندما اعتدل بصق، العادة الوحيدة التي لم يتخلَّ عنها قط.

قال بضعف بالغ:

– بُني، كنت أشتاق إلى رؤيتك، اشتقتُ إليك.

قلت وأنا أحاول مساعدته:

– أنا أيضًا يا معلّم، ماذا أصابك؟

نظر لي بصعوبة بالغة ثم قال:

– لقد تغيّر الوضع كثيرًا يا بني منذ أن غادرت المملكة.

قلت:

– كيف يا معلّم؟ وماذا حدث لك؟

سعل ثم قال: منذ أن قُتل الأمير، وخاصة بعد أن تُوفي جلالة الملك أحمد فؤاد، والحال غير الحال.. ساروا مسعورين جداًّ، يقتلون فينا كأننا حشرات تُؤرقهم.. تعذيب وخدمة بلا أجر، يقتلون الولدان يا بني، يقتلون الصغار كأنهم يخافون الغضب الشعبي، يخافوننا، ربما استشعروا الخطر بعد قتل الأمير، ربما أنا لا أعرف.

ثم سعل كثيراً.

قلت:

– ولماذا سمحتم لهم بهذا؟ كيف؟

قال:

– وكيف لنا أن نرفض؟ نحن نخاف يا ولدي، نخاف الباشاوات وعصي الحرس، وأسلحتهم.

قلت:

– وماذا أيضًا؟

قال:

– ثم كانت الطامة الكبرى حين وجدوا أحد الفقراء قد تسلَّل إلى داخل القصر ليسرق الفاكهة، قتلوه

شر قتلة، قتلوه أمام الكل، قتلوه بلا رحمةٍ.

قلت:

– يا إلهي، لقد جنّوا.

قال:

– نعم، ويا ليت الأمر قد انتهى عند هذا الحد، الفقراء قد فاض بهم، سار من الطبيعي أن نجد من يشنق نفسه من الفقر أمام القصر، أو من يشنق نفسه، حوادث الانتحار ازدادت بشكل خرافي.

قلت:

– لهذا الحد؟

قال:

– نعم يا بني، ثم إنهم أعلنوا الخدمة الإلزامية، وهو بيان دستوري يُلزم كل من ليس له لقب ملكي بالعمل لديهم بلا أجر، كالعبيد بل أذل.

قلت:

– الكل يا معلّم؟

ساحر الكتب

قال:

– نعم، حتى الشيوخ، والنساء، والأطفال، وأنا.

ثم أردف:

– عندما سقطت من الإرهاق، جلدوني كما ترى، ثم رموني إلى الداخل كالنعاج، منذ يومين وأنا هنا أنازع وأصرخ بلا جدوى.

غضبت، ركلت الحائط بكل قوتي من الغضب.

قال المعلّم إسلام:

– إن أيامي قد باتت معدودة يا بني، وعليّ أن أخبرك سِرًّا كتمته عنك كثيراً، وقد حان الوقت.

قلت:

– ليس مهمًّا الآن يا معلّم، علينا أن نجد لك المساعدة وإلا...

قاطعني وقال:

– أرجوك يا شاكر يا ابني، إنها اللحظات الأخيرة، أنا أعلم جيداً، ويجب أن أُزيل ما على عاتقي لأموت

مستريحًا، وأنا أحمد اللّه أنك أتيت أخيرًا لتراني كما طلبت.

لم أرد فأكمل:

– ماذا تعرف عن والدك يا شاكر؟

قلت:

– لماذا تسأل؟ هل أنت والدي الحقيقي؟

قال:

– ليس هذا وقت المزاح يا بني، قل لي، ماذا تعرف عن والدك؟

قلت:

– ليس بالكثير، لقد كان خادمًا، وتعرّف على أمي وغادر قبل أن تنجبني بشهور، هذا كل ما أعرفه.

قال:

– بل هذا ما كانت أمّك تريدك أن تعرفه.

قلت:

– ماذا تقصد يا عمي؟

قال:

– ألم تتساءل.. لماذا كانوا ينادونك بابن الباشا؟ لماذا لم تكن تشبه أباك أو أمك؟

قلت:

– العرق يمد لسابع جد يا معلّم.

صمت، ثم قلت:

– ما الذي تريد قوله يا معلّم؟

قال:

– أقصد.

ثم أخرج ورقة ووضعها بين يدي وقال:

– إن اسمك ليس شاكر أبو العزايم.

ثم نظر إلى الأفق وصمت لبرهه ثم قال:

– اسمك هو شاكر.. شاكر أحمد فؤاد الثاني، ولي عهد المملكة المصرية.

صرخ الأمير راسخ من مقعدة:

– هذا كذب، كذب، أنت كاذب.

قال القائم مقام:

– هل جُننت يا شاكر؟ ما هذا السخف الذي تقوله؟

قلت وأنا أضحك:

– الحقيقة، الحقيقة الصادمة التي طالما حاولتم إخفائها وفشلتم.

اندهش الجمع وعلت أصوات الهمهمات الجانبية.

قلت بصوت جهوري:

– الحقيقة لا بد لها من ميعاد للظهور، وقد حان الميعاد.

قال راسخ:

– اقتله يا جناب القائم مقام، لقد جُن هذا الفتى، قتله خير من السماع لمهاتراته.

قلت للقائم مقام:

– ستجد في جيب سترتي شهادة الميلاد الملكية الخاصة بي، مختومة من جلالة الملك شخصيًّا، هذه الورقة التي حاول الباشا في القصر وأنا طفل قتلي بسببها، والتي حاول الكل طمسها مع الزمن.

اقترب القائم مقام من سترتي ثم أخرجَ الورقة وشرع في القراءة، ثم نظر إلى الأمير راسخ وقال:

– هذا صحيح يا سمو الأمير، هذا صحيح.

صرخ من عرشه:

– كذب، كذب وافتراء، ابن الخادمة هذا قاتل ومزوّر.

قلت وأنا أضحك:

– ومن قال لك إنني اهتم بأن أكون فردًا من عائلتك أيها المخنث؟

ثم أضفتُ:

– ليس هذا مهمًّا، سأكمل إذًا، أكملت:

– شرعتُ أقرأ شهادة الميلاد غير مصدّق ما يحدث.

قال المعلّم إسلام:

– نعم يا بني، أنت الوريث الشرعي، ولهذا قصة تطول.

قلت بغضب بالغ:

– ولماذا لم تخبروني؟ لماذا لم تخبرني أمي؟

قال:

– وماذا كنت تريد أن تخبرك أمُّك؟ أنها كانت تنام مع الملك؟ وأنك ابن غير شرعي للملك؟ لم تكن لتتفهّم ذلك، وهي لم تكن لتقول لي إلا حين حضرها الموت يا بني.

قلت:

– ولكن كيف؟ كيف حدث ذلك؟

قال:

– عندما كانت تخدم في القصر، أعجب بها الملك، وأقام معها علاقة غير شرعية، وهي لم تكن تملك حق الرفض، ولكنها أطاعته، وتطوّر الأمر حتى أحبّها، وساروا يتقابلون كثيراً، حتى تغيّر كل شيء بحملها منك.

الحمل من الملك هو العار كلّه، التدنيس كما تعلم، وكان عليه أن يقتلها، خاصة بعدما عرف أبناء عمومته بما حدث وبأمر الحمل, وأمروه أن يقتلوها وإلا قتلوها هم, ولكن جلالة الملك رحمه اللّه لم يقدر على ذلك، فأعطاها المنزل الذي عشتما وترعرعت فيه.

ولكن أمور كهذه لا تختبئ أبداً، وسرعان ما علم الحي بالخبر, ولتحميك والدتك ادعت أن أباك هو الحاج أبو العزايم، أخوها الذي لا يعرفه أحد، وهو الذي كان في الصور دائماً.

واحتفظت والدتك – يسعل – بشهادة ميلادك على أمل أن تخبرك حين يحين الميعاد، لقد تحمّلت والدتك الكثير يا بني، اغفر لها، وادعُ لها بالرحمة.

قلت:

– رحمها اللّه وغفر لها، ولكن قل لي لماذا حاولوا قتلي وأنا صغير؟

قال:

– إذا ظهرت يا ولدي، فأنت تهدم كل مخططاتهم، طفل من السلالة المالكة لأم من الخدم، هذا يعني أن الحكم للشعب، وإذا كان الحكم للشعب يهدم

الفساد وتهدم أعمال الباشاوات, ومن أجل المال يحدث أي شيء.

قلت:

– الآن فهمت، يجب أن يظل الحكم بينهم، إذا ما خرج من بينهم انهارت مشاريعهم وأموالهم، نعم نعم لقد فهمت.

قال:

– ولهذا كانوا يعلمون أنه سيعود يومًا ما وسيقتلهم جميعًا، ولهذا شددوا الحراسة خاصة بعدما قتل الأمير في حجرة الأميرة شاهندة، ظنوا أن للأمر علاقة بما يحدث الآن.

قلت:

– وهل للملك علاقه بهذا؟ قلت إنه كان يحبّها.

قال:

– ما علمته من والدتك ـن جلاله الملك السابق بل, وأظن ان الحالي أيضًا لا يعلمان شيئًا، إلا أن جلالة الملك السابق يعلم أن ولده في أمان تحت اسم

مستعار، أما كل الخطط هذه من تدابير الحاشية ورجال القصر.

قلت:

- وماذا الآن يا معلّم؟

قال:

- الآن أنت تعلم كل شيء، وقد استرحت، وأستطيع أن أموت وأنا مطمئن عليك، الأمور بين يديك الآن يا ولدي، ارجع،أنت حلقة الوصل بيننا نحن الصعاليك وبين النبلاء، حقوقنا في رقبتك يا بني.

ثم أنه أغمض عينه ليستريح، لا لم يمُت يومها بل تُوفي بعدها بيومين، وكان آخر اسم على لسانه هو "أحمد باشا ذكي".

بعد أن أقسمت بداخلي أنني سأنتقم شر انتقام من كل من كان السبب في هذا، سيندم الكل وسأسخّر كل طاقتي لهذا، كل من ظلم على أيديهم سيأتي حقّة إن عاجلًا أم آجلًا، وبدأت بالفعل في التخطيط.

عليَّ فقط أن أغلق بعض الأبواب القديمة حتى أستطيع الانتقام ببال مستريح.

* * *

١١

عام ٢٠١١ – ١٢ فبراير

مَرَّ عام على كل شيء، على عودتي، على وفاة والدي الروحي "المعلّم إسلام "، على كل شيء.

كانت الشركة تعمل بشكل ممتاز وقد ازدادت أرصدتي في البنوك بشكل ملحوظ، اشتريتُ فيلا كبيرة في حي الزمالك الراقي وسكنت فيها بعدما أخذت كل ما كان يخصّني أنا وأمي من البيت القديم.

كانت حياتي تزدهر شيئًا فشيئًا، كثرت معارفي من الباشاوات والبكوات، ساروا أصدقاء مقرّبين، وكنت آتي إلى القصور الملكية مدعوّاً الى كل شيء، وأنا كنت أقرّب نفسي منهم بقصد، حتى أعرفهم أكثر فأكثر وأُخطط للانتقام جيداً.

كنتُ أريد أن أزيح الشكوك من حولي، وقد نجحت فعلًا في الأيام التالية، سار اسمي واسم شركتي لامعين جدّا، منتشرين بصورة واضحة.

احتكرت سوق الهواتف الذكية الذي احتكره الباشاوات بدورهم، فرمان ملكي بحظر بيع مثل هذه الهواتف للعوام كان كفيلًا باحتكاره، وهو أمر

لم يكن مستحبًا من قبلي حيث إنني كنت أكرههم بشدّة، بل إنني أنحاز أكثر إلى الفقراء المهدورين لحقوقهم، وكان لا بد أن يتوقف كل هذا يومًا ما.

في ذلك اليوم كنت أسيرُ كعادتي في النادي الملكي بالزمالك للتريض قليلًا، فقد كنت معتاداً على التريض في ذلك الوقت من النهار كنوع من الرياضة.

وكانت لي طاولة خاصة بي اعتدت الجلوس عليها بعد التريض دائمًا.

جلستُ يومها، وكنت أحتسي بعض العصائر في هدوء تام.

حتى جاءني الصوت من خلفي يناديني في شغف:

– شاكر بك؟

قلت وأنا أبتسم:

– نعم، إنّه أنا سيدي.

قال:

– لقد كنت دائمًا من أشد معجبيك يا بك، أنت إنسان طموح.

قلت بهدوء:

– شكرًا سيدي لي جزيل الشرف.

قال:

– اسمح لي أن أتعرّف إليك أكثر؟

قلت:

– لي الشرف سيدي.

قال وهو يمد يده:

– أحمد ذكي باشا سيدي، تشرفنا.

سمعت الاسم وكأنه صدى يرن بداخلي، هذا الاسم قد سمعته منذ عام، بالتحديد قالها أبي الروحي رحمه اللّه.. يا لها من فرصة! ويا له من شخص تافه!

نظرت له صامتًا مطولًا, وهو يمد يده وأنا لا أكترث، أنظرُ له وأسرحُ في كل شيء، في كل ذكرياتي، في كل الأشخاص الذين حرموني إياهم.

كرهته منذ اللحظة الأولى، هذا التافه هو من قتل المعلّم إسلام بدم بارد، هذا الذي استباح دمه، هذا أول قاتل، وهذا هو من سأبدأ معه.

تداركت الموقف سريعًا ثم مددت يدي وتأسّفت.

قال:

– لطالما أردتُ التعرّف إليك سيدي، وها قد حانت الفرصة.

فجأة، وجدت نفسي أتودّدُ إليه بلا سابق إنذار، ثم إنني أدرتُ مقعدي وجلست معه.

قلت:

– أنا أيضًا لطالما أردتُ التعرّف إليك يا باشا، سمعت عنك الكثير.

قال:

– حقّا؟ تعرفني؟ ظننت أنك...

قلت مقاطعًا:

– لا تظن يا باشا، لقد صرنا صديقين، صحيح؟

ساحر الكتب

قال مبتسمًا:

– نعم، فعلًا.

صمت قليلًا ثم أردف:

– يوم الخميس القادم لديَّ حفلة خاصة بمناسبة عيد ميلاد زوجتي، ويشرّفني أن تحضرها، سأكون سعيداً جداً بلقائك ثانية يا بك.

قلت وأنا أضحك:

– بل أنا من سأكون شاكرًا جدًا، أعدك.

ثم استأذنت منه ورحلت.

ها هي دائرة الانتقام قد بدأت، وكأن القدر قد قاده لمصيره معي، يا لسخرية القدر!

عدتُ إلى منزلي وفي جعبتي الكثير، بعد انتظار دام لأعوام سأبدأ ما كنت أسعى إليه من قبل، سأبدأ في فض غليلي قليلًا، وإنني لعلى شغف كبير بما أنتوي فعله.

اليوم كان الثلاثاء، أي إن أمامي يومين فقط للتخطيط، ولم أضيع الوقت ثانية، هي فرصة قد لا

ساحر الكتب

تتكرر، حفل بأموال الصعاليك، زحام، ولن يشك في أحد مطلقًا.

ولكن كيف سأفعلها اذن؟ هؤلاء الباشاوات يؤمنون حفلاتهم كثيرًا، ترى كيف سأفعلها؟

جلست أُفكّر مليًا، كنت أتذكر وجه كل من فقدتهم بسبب الباشاوات، أتذكر مليًّا حياتي الرتيبة التي قلبت رأسًا على عقب بسببهم.

ثم تذكّرت الحادث الذي كان السبب في كل هذا.

مقتل الأمير مصطفى باشا في حجرة شاهندة، هذا الحادث الذي تسبب في كل شيء.

ثم قد فكّرت كثيرًا، لماذا لا أكررها بنفس الطريقة؟

نعم، ثمرة المانجو، والمقص، طعنة في العين وطعنة في الرقبة.

ولكن فاليكن نصلًا، لن أسير في الطرقات بمقصّ، لن أدخل إلى حفل بمقص، ليكن نصلًا إذًا.

ظللت يومين أُخطّط كيفية فعلها، حتى إنني قد صممت ملابس تؤدي الغرض، فأنا لا أريد دماء على سترتي أو وجهي بالطبع.

كنت منتشيًا جدًا، وأنا أفكّر وأحسب كل خطواتي وقتها، يومان وأنا ارتدي ملابسي التنكّرية المكونة من سترة سوداء وقناع أبيض وقبعة، لا بد من قبعة، لا أريد ان ينكشف أمري عندما يرون شعري المنسدل مثلًا،

الخميس، الليلة المفضّلة عند المصريين.

حيث إنها ليلة مقدّسة كما يراها البعض وإن كفّوا عن ذلك، فالخميس صار بالنسبة لهم عبودية، يوم آخر وحفلات أخرى وخدمة بلا أجر.

كان الميعاد في فيلا الباشا بالمعادي،تمتاز فيلات الباشاوات بالحدائق الكبيرة فقد كانوا يحبّون البزخ، البزخ في كل شيء.

وصلت كما خططت قبل ميعادي بساعة، عليَّ أن أجهّز كل شيء حتى لا أخطئ أبداً.

كيس بلاستيكي لأسود صغير في سيارتي، به السترة والقبعة والنصل، وثمرة المانجو.

نعم، لقد ابتعت عشرات الكيلوجرمات من ثمار المانجو وخزّنتها في حجرتي بالمنزل، فهذه الثمرات ستكون الأيقونة حين يحين الوقت.

لم يفتّشني أحد بالطبع فأنا بك، ومحظور على هؤلاء الخدم التدنيس أو المقربة مني بما فيهم الحرس.

وصلت ليلًا، ثم إنني حين اقتربت من باب الفيلا الرئيسي ألقيت الكيس بجوار شجيرة قريبة حتى يتسنّى لي التغيير قريبًا من الفيلا.

دخلت الفيلا وكان الحضور يتتابعون واحداً تلو الآخر.

قابلني أحمد باشا بالترحاب وأدخلني إلى حيث مائدة الاستقبال،

الكثير من المقبّلات تنتشر في كل حدب وصوب، هؤلاء الباشاوات أخ منهم!

محظور على الخدم أن يأكلوا من هذا الأكل أبداً حتى بعد الانتهاء، الباشاوات والبكوات يرمونه خشية أن يتعوّد على مذاقه الخدم، فيثورون.

وقفتُ أتسامر مع أحمد باشا وصُحبته من الباشاوات، ثم إنّه عرّفني إلى باشا آخر لن أنساه بسهولة.

كامل باشا بهلوي، الأمير ذي الأصول الإيرانية الذي يمتلك ديوان الحقّانية في مصر.

ذلك الرجل لم أنسَ وجهه مطلقًا، هذا من أراد قتلي وأنا طفل، هذا عمّ شاهندة بنفسها، وقد تعرّفته.

ميزة كونك باشا ذا صيت وثراء، أن الكل يريد أن يتعرّف إليك عسى أن تجمعكما الشراكة يومًا ما، هم لا يحبّونني لشخصي بالطبع، هم يريدون الأموال، حتى حديثهم في الحفل كان عن الأموال وشركاتي.

قلت في قرارة نفسي أن كامل باشا هو غايتي الثانية، لذلك توددتُ له كثيرًا حتى اطمأنَّ والتمعت عيناه يحلم بأموالي كالعادة، ثم أخذت رقم هاتفه على وعد باللقاء قريبًا.

الساعة شارفت على منتصف الليل، وهو ميعاد الطقس المسمّى "إغلاق الأنوار" فهم يغلقون الأنوار استعداداً لإشعال شمع الكعكة العملاقة احتفالًا بميلاد زوجته.

حضرت زوجته ترتدي فستانًا،وبعض الحلي، وقد تزينت وارتدت الكثير من الحلي تكفي لسد جوع القاهرة لأعوام إذا ما تم بيعها.

مقبرة من الآثار تتحرّك على قدمين، عطور فواحة بمئات الجنيهات، كلّها من أموال الكادحين،

الصعاليك الذين يقتاتون على القطط والكلاب، على جلود الطيور، على المخلّفات.

أخذ أحمد باشا زوجته من يدها وهو يبتسم ثم إنه قادها إليّ، بالطبع البك ذائع الصيت.

قال:

– جوليت هانم، زوجتي.

قالت شيئًا ما بلغة غربية بعيدة عن مسامعي وابتسمت، فحييتُها بدوري وابتسمتُ أيضًا.

نظرت إلى الباشا فقال:

– اعذرها يا بك،فهي أوكرانية الأصل ولا تتحدّث العربية كثيراً، هي تحييك.

ابتسمت ثانية وهممت لتقبيل يدها كنوع من الأعراف المتداولة، فابتسمت ثانية.

جو عام من التصنّع، وهي أجواء أكرهها بشدّة، لو كان الأمر بيدي لزرعت الألغام تحت القصر ولأرحت العالم من سخافاتهم.

مرت ساعة ونيف، نظرت إلى ساعتي وعلمت أن الوقت قد حان، أطفأتُ سيجارتي التي كنت أدخّنها

في هدوء.

اقتربت من أحمد باشا ذكي قليلًا.

قلت:

– حفل جميل يا جناب الباشا.

قال:

– شرف لي أنك قد أعجبت بالحفل، أنت شخص عظيم يا بك.

قلت:

– بل أنت يا جناب الباشا، ولكن اعذرني فهناك بعض المشكلات التي تؤرقني هذه الأيام، ولهذا لا أستطيع أن أستمتع بالصخب.

قال:

– بماذا تشعر يا بك؟

قلت:

– لا أستطيع التحدث في مثل هذا الصخب يا باشا، سأكون في الحديقة إذا أردتَ مشاركتي.

قال:

– حسنًا، أنا وراءك.

قلت وأنا أمسك يده:

– خُذ راحتك سيدي، أنا في الحديقة.

ثم تركته واتجهتُ إلى الحديقة، نظرتُ حولي فلم أجد أحدًا، وهذا طمأنني، ثم نظرتُ حولي، لا توجد كاميرات أيضًا، وهذا من حُسن حظي.

بخطوات بطيئة اتجهتُ إلى الشجيرة، ثم تواريتُ خلفها, وسريعًا ارتديت السترة والقبعة فوق ملابسي التي كنتُ أرتديها، ثم تأكدت من النصل, ووقفت خلف الشجيرة أنتظر.

انتظار دام لحظات فعليًا، ولكنه كان كالدهر بداخلي.

المرة الأولى التي أشعر بأنني سفّاح حقيقي، أُخطط للقتل وأُنفّذ، شعور مختلط بالرهبة والخوف والتشفّي والانتقام والفرح، مجموعة من الأحاسيس والمشاعر المختلطة بداخلي شعر بها جسدي الهزيل فقرَّر أن يهتزَّ، دفعة الأدرينالين إنها هي.

ذلك التنميل البسيط في أطرافي، وهذا الوجن، والانتشاء، وقلبي المهتز دائمًا، تمنيت أن يتحمّل جسدي كل هذا.

لحظات وظهر أحمد باشا في الحديقة وأشعل سيجارته وكان يبدو عليه أنه يبحث عني.

بصوت خفيض ناديته:

– أحمد باشا، هنا يا أحمد باشا.

نظر إلى مصدر الصوت واقترب كثيرًا.. كانت دقّات قلبي في ازدياد، التوتر يزداد، يدي ترتعش قليلًا، ريقي ينسحب رويدًا رويدًا حتى صار حلقي كصحراء الحجاز في الصيف، لم أندهش لو ظهرت ناقتان تهرولان بداخل حلقي, ولكن برغم كل هذا كنت أحاول التماسك.

اقترب من مصدر الصوت قليلًا وقال:

– أين أنت يا بك؟ لماذا تتوارى خلف هذه الأشجار؟ هل أصابك مكروه ما؟

قلت:

– اقترب وسترى أنه لشيء غريب.

دنا مني كثيرًا حتى حانت اللحظة المناسبة، ثم قفزتُ أمامه وأنا أرتدي الملابس والقناع.

قال وقد بدأ يخاف قليلًا ويبتعد:

– ما هذه الملابس يا بك؟

قلت والتشّفي قد بدأ يظهر عليَّ:

– هذا يا باشا هو الانتقام، هو ضميركم الذي تحرّر من داخلكم فصار كيانًا مستقلًا يتجول في الأنحاء، هذا أنا، أنا الحساب، أنا لحظة الوداع، ملك الموت..

أنا ثمرة المانجو.

ثم ضحكت بكل قوة وهستيرية وأنا واثق أنه لن يسمعني أحد، وهو كان يصرخ ويحاول الفرار، ولكن قبل أن يفر كان النصل المسنون جيدًا قد اخترق عينه اليسرى لتنفجر بسائلها الأبيض، فصرخ وسقطَ على الأرض، تمامًا كما فعل مصطفى باشا من قبل.

ثم إنني رفعت النصل وقلت:

– هذا من أجل المعلّم إسلام.

ساحر الكتب

ثم دسستها بداخل عنقه، ليتحشرج قليلًا ويتقلّب وهو يحاول الوصول إلى الجرح بيد ثقيلة بلا جدوى، ثم يصمت، يصمت إلى الأبد.

كانت الدماء تغرّقني، نافورة من الدماء انفجرت لتغرّق كل شيء، سترتي وقناعي وحتى الحشائش على الأرض، وهذا أثبت نجاح خطتي والحكمة من إحضار سترة أخرى.

ضحكت بتشفٍّ وقلت:

- ألقِ سلامي إلى المعلّم إسلام أيها التافه، ثم بصقت عليه.

نظرت حولي ولم يكن أحد هناك فاسترحت.

خلعت سترتي وقناعي والقبعة وكل شيء، ثم تركتها بجانبه، فأنا لا أحتاجها ثانية، وعلى صدره تركت ثمرة المانجو.

عدّلت من ملابسي وشعري وطربوشي، ثم تأكدت أنني بخير وهادئ، أشعلت سيجارة بهدوء وسحبت بعض الأنفاس.

إذا صار كل شيء على ما يُرام، فسأكون بخير، وسيمر كل شيء بسلام.

انسحبتُ إلى داخل الحفل، وكأن شيئًا لم يكن.

راقبت الموجودين، جاءت الكعكة فلم يظهر الباشا، مرّت ساعة وهو مُختفٍ حتى بدأ الموجودون في استشعار القلق.

زوجته تجيء وتذهب بلا جدوى فأنا أعرف مصيره، ولكن شيئًا في عينيها أضعفني قليلًا.

الموت صعب، الاختفاء أيضًا، أنا لأشفق عليها فهي لا ذنب لها، بل ولن تعرف لماذا قُتل حتى، وهو أبسط حقوقها.

اقتربتُ منها وحاولت التماسك قليلًا، ثم ادعيتُ البراءة وقلت:

– سيدتي، أين أحمد باشا؟

نظرت لي وقالت بعربية ركيكة:

– لا أعرف يا بك، لقد كان هنا واختفى فجأة.

ثم تركتني واتجهت إلى الحرس.

يبدو أنها قد أخبرتهم بأنه عليهم البحث عنه فقد تأخر بالفعل، ثم أشحت نظري عنهم في انتظار رد الفعل.

ثم بدؤوا في البحث عنه، وها هو جثّة هامدة.

جاءت صرخة من الخارج يليها هُرع بعض الحرّاس جيئةً وذهابًا.

أُنيرت الأضواء، وجاء الهاتف من بعض مكبّرات الصوت المنتشرة في أرجاء القصر يطالب الجميع بالتزام الهدوء..

تساءل الكل عن الأمر، فوجدوا أن جولييت هانم تبكي بحرقة، بحرقة غير عادية، تداول الجميع خبر قتل الباشا في داره وأن الجثّة ملقاة في الحديقة.

فهُرع الجميع، وكانت قد وصلت سيارات الحرس والدرك والبوليس السياسي لتطويق المكان وللتحقيق.

وقفنا جميعًا في الحديقة نشاهد ما يحدث.

كانت الجثة في مكانها، وبعض أفراد الحرس يسألون الكل عن آخر من كان معه وماذا كان يفعل في الحديقة إلى آخره.

ووقف بعض الأطباء الملكيين يحيطون الجثّة ويرفعون البصمات إلى آخره، ثم إن أحد الأطباء

أمسك شيئًا ما بمبضع ورفعه عاليًا ليشهق الجميع من هول ما رأوا.

ثمرة المانجو.

السفّاح ما زال حيًّا إذًا.

* * *

ساحر الكتب

١٢

كان القائم مقام قد جلس أخيرًا بعيدًا عني قليلًا من كثرة الإرهاق، واستند بظهره إلى الحائط، وقد نزع سُترته وتبعثر شعره كثيرًا حتى إنه قد نزع طربوشه، ومن العادات الملكية إن نزع الطربوش يكون في حالات الوفاة أو الحرب فقط، أما غير هذا فهو إهانة للموجودين، ولكن من يكترث؟

قال القائم مقام:

– قصة جميلة يا بك، واعترافات غاية في الأهمية، ولكن قل لي.. لماذا ثمرة المانجو بالذات؟ لماذا لم تختر رمزًا آخر؟

قلت:

– أأنت غبي يا جناب القائم؟ أم أنك لست مؤهلًا للتحقيق؟ أم أن الشيخوخة قد أصابتك مبكّرًا، أنت لم تتجاوز الثلاثين بعد، ويبدو وجهك كشيخ كهل، أم أن ضرب زوجتك لك قد أثّر في ذاكرتك؟

ابتسم الجمع وأفلتت بعض الضحكات بينهم، لأول مرّة منذ الإمساك بي يضحكون، ولكن من يهتم بهؤلاء الرعاع.

اندهش ثم قال بغضب:

– أستطيع قتلك، وأنت تعلم هذا، لا تزايد ثانية، فقط أجب عن أسئلتي.

قلت:

– حسنًا، رفقًا بعمرك الذي طال في جلستنا هذه سأجبيك.

ضحك الجميع ثانية.

قلت:

– ثمرة المانجو رمز مهم، فاكهة تطرح من اللاشيء, ومع ذلك هي أغلى أنواع الفاكهة، نبت شيطاني ينتج ملائكة، كما أنها كانت أول صلتي بأول وآخر حبٍّ لي "شاهندة" وأيضًا كما تعلم بسببها بدأ كل شيء، ولهذا كان لا بد لي يا جاهل أن أختارها أو تختارني، لا فارق.

قال:

– أكمل يا ابن الخادمة، أكمل.

قال راسخ من مجلسه:

- ابن الخادمة هذا الذي يظن نفسه مَلكًا، هيهات.

ثم صرخ ثانية:

- هيهاااات.

قلت بلا اكتراث:

- ثق بي يا باشا بأنك ستندم على كل هذا.

قام راسخ باشا من مجلسه، وأخذ بمطفأة معدنية كانت بجانبه ورماها على رأسي بكلتا يديه لتشج رأسي وتنفجر الدماء.

لم أصرخ، ولكن انفجار الدماء كان كبيرًا فعلًا، ثم شعرت بالدوار.

قال:

- كلمة أخرى وسأقتلك، أعدُك.

أما أنا، فقد شعرت بدوار كبير، وقد بدأت أفقدُ الوعي، لقد نزفت كثيرًا هذه الليلة ولم أعد أقدر على المواصلة.

قال القائم مقام:

- لِمَ يا باشا؟ لِمَ؟ لقد طلبت منك الانتظار حتى نأخذ اعترافاته كلها، لم يعجب جلالة الملك بتصرّفك هذا.

قال راسخ باشا:

- أشتمُّ رائحة تهديد يا أيها القائم، ولن أغفر لك أبداً ما تقول.

قال القائم مقام ببعض العصبية:

- جلالة الملك قد أعطاني كل الصلاحيات يا فخامة الأمير، وأنا الآن أطلب منك المغادرة لأكمل التحقيق.

صرخ راسخ باشا وأمسك القائم مقام من ملابسه:

- ماذا؟ هل جننت يا هذا؟ أنا أفعل ما يحلو لي حتى وإن أردت أن أعاشر والدتك، أتسمع؟

قال القائم مقام:

- من فضلك يا جناب الأمير، إلى العلية مع جلالة الملك، وإلا أمرت الحرس بإجبارك على الصعود، وأنت تعلم أن صلاحياتي ك...

صرخ:

– سحقًا لصلاحياتك، بعد انتهاء التحقيق اعتبر نفسك في السجن.

ثم تركه وصعد وهو يسبّه بلا توقف.

مرّت نصف الساعة وهو يحاولون إيقاظي، مياه مثلّجة وبعض السكّر، القرص، العطور، كل شيء.. ثم إن القائم مقام قد اقتطع جزءاً من سترته ليكتم الجرح في رأسي، وربطها.

أفقتُ، ثم استعدتُ وعيي وأنا ما زلت أشعر بالدوار.

قال القائم مقام:

– هذه المرّة أنا أتأسف لرد فعل الأمير راسخ، عندي هذه يا بك، سامحنا.

قلت وأنا اقاوم الدوار:

– حسنًا يا جناب القائم، فقط أخرج لي لفافة تبغ وسأكون بخير، وكذا فعل.

أكملت:

– كانت هذه هي أول حادثة قتل أقوم بها فعليّا، وليس قتلًا خطأ كما حدث مع الأمير مصطفى.

عدتُ إلى منزلي يومها, وأنا في حالة يرثى لها، خوف على فرح، أضحكُ قليلًا ثم أبكي قليلًا، هذه الحادثة قد غيّرت في شخصيتي الكثير، صرتُ أعشقُ الدماء ومنظرها، كما يقولون بالفعل إن من يقتل مرّة يقتل ألف مرة، شعور القتل هو شعور جميل، شعور بالنشوة والرهبة، شعور بالعظمة، كما قال النمرود يومًا "أنا أُحيي وأميت"، كان يقصدها، أنت حين تقتل فإنك تشعر بأنك تتحكّم في مصائر البشر، تحيي من تريد وتنهي حياة من تريد.

نمتُ ليلتها بصعوبة، ربما من فرط الاستمتاع وربما من الخوف، ربما من شعوري بأن أمي قد استراحت في قبرها، والمعلّم إسلام كذلك.

شعرت بالقوة، قوة الانتقام وأنني لستُ ضعيفًا ثانيةً، وأنني كالبطل الخارق لا أترك حقوق أحد مطلقًا، وهكذا نمت في سلام أخيرًا.

مرّت الأيام، وانتشر الخبر.. هذه المرّة صار الخبر مهمّا جدًا، أعلنت حالة الطوارىء، هذه المرّة تأكدوا أن هناك سفّاحًا يطارد الباشاوات، وأنها مؤامرة وليست مصادفة.

بين الحادثتين سبع أعوام أو أكثر، ولكن سرعان ما استعاد الذهن الحادثة القديمة حينها، نفس

أسلوب القتل، ونفس توقيع السفّاح "ثمرة المانجو"، تطور الأمر بشكل دراماتيكي في وقت كثير، فجأة بأمر ملكي تحوّل الإعلام إلى منبر للتنديد بمثل هذه الحوادث، يسبّون الشعب الضعيف لأن مثل هذا السفّاح قد خرج من بينهم، وأن ما يحدث هي خيانة للوطن، ولا بد من حد لهذا المزاح.

هناك ذلك الإعلامي المشهور عنه الثراء الفاحش، يطالب الجميع بألا يناموا حتى يكشفوا عن هوية ذلك القاتل.

وهذه الإعلامية اللعوب، المعروف نسبها للعائلة الحاكمة، تصرخ في وجه المشاهدين بأن ما حدث هو الإرهاب بحد ذاته، هذا إرهاب قاتل يهدد استقرار الوطن، ثم لم تفرغ إلا بعدما دعت للملك بطول العمر، فهذا المديح سيزيد من أرصدتها في البنك بالطبع.

صارت المملكة أكثر جنونية، تواصل التحقيق مع كل الصعاليك والخدم، وتواصلت أحداث الخطف القسري بين الجميع، كل من يشكّون بأنه مرّ بجانب حي الزمالك يومها يخطف، ثم يظهر جثّة هامدة بعدها بيومين على الأكثر.

الهرج يزداد، العشوائية في التحقيق، ثم لا شيء، لم يظهر أي شيء، من يستطيع أن يشك في أحد

البكوات؟

مَرّ على الحادث القرابة عام، انسحب الجواسيس ورجال الأمن شيئًا فشيئًا، ثم تناسى الجميع الحادثة مؤقتًا.

أما أنا في ذلك العام كنتُ أعمل على شركاتي جاهداً، صارت الهواتف الذكية في يد كل باشا، الربح يزداد والشهرة تزداد أيضًا، صرتُ أتودد إلى كل الطبقة البرجوازية، أحضر حفلاتهم، أسهرُ في نواديهم، أُمازحُ هذا أتحدثُ مع ذلك.

اسم شاكر بك صار الأشهر في الوسط بشكل رهيب، حتى الفتيات صرن يتوددن إليّ عسى أن أتزوج إحداهن فتصبح في مثل ثرائي.

وأنا كنت أصرف ببزخ، أبداً لن يفكّروا لحظة أن ثمرة المانجو ما هي إلا شاكر بك.

بحلول عام ٢٠١٢ لم أكن أخطط حادثة قتل أخرى، فقط كنت اتركها للزمن، وقد حدث.

في يوم من أيام شتاء العام ٢٠١٢، جاءتني مكالمة غير متوقعة، رنّ هاتفي وكان الاسم "كامل باشا بهلوي".

التمعت عيناي، الضحية الثانية، القاتل الثاني، قاتل أمي وقد خطا إلى مصيره بقدميه.

أجبت:

– سعيدة يا باشا.

قال:

– سعيدة يا بك، كيف هي أحوالك؟

قلت:

– بخير طالما أنت بخير يا سيدي.

قال:

– أرجو ألا أشغلك عن شيء مهم.

قلت:

– لا أبدًا يا باشا، أنت تهاتفني في أي وقت هو شرف لي سيدي.

قهقه قليلًا ثم قال:

– أردتُ فقط أن أدعوك إلى حفل عائلي بسيط مطلع الشهر القادم، وعليك أن تأتي يا بك، شرف لنا أن تحضر يا بك.

قلت:

– عسى أن يكون خيرًا سيدي.

قال:

– خيرًا يا جناب البك، خيرًا، سأنتظرك،.

قلت:

– في الميعاد سيدي، ومبارك مقدّمًا.

ثم أغلق الخط، وابتسمت قليلًا.

شهرًا وسأقوم بها، لديَّ شهر لأخطط، هذه المرّة سأتمرّن قليلًا، أريد لياقة بدنية وسرعة تحرّك، لا أريدُ أن ينكشف أمري، فالحراسة ستكون شديدة فعلًا.

شهرًا كاملًا كنت أتمرّن على كل شيء، الركض، حمل الأثقال، سرعة الطعن، كنت أخصص حجرة داخلية بداخل قصري المتواضع وقد أطلقت عليها "الوكر"، حجرة عملت على إنشائها كثيرًا، بها أدوات

التدريب والكثير من الورق والكتب، وجهاز حاسوب، وإضاءة مريحة، وكل شيء.

ودولاب مليء بالسترات السوداء والقبعات والأقنعة والنِّصال، والكثير من المانجو.

هذا الوكر الذي صار فيما بعد كل شيء، كل شيء في حياتي.

أتمرّن فيه، أخطط فيه، أفعل كل شيء.

هذه المرّة سأفعلها سريعًا، وعليَّ أن أغيّر المكان الذي سأنفّذ فيه.

فالحديقة ستكون علامة على حوادث القتل ولا أريد أن ترتبط حوادث القتل بالحديقة، عليَّ أن أستحدث مكانًا جديداً كلّ مرّة.

اقترب الميعاد جدّاً، وكانت فكرة الانتقام لا تفارق بالي مطلقًا.

في ليلة الحفل، تأنقت جيداً، جيداً جدّاً، لا أريد أن أُثير الشكوك.

وأمام المرآة ظللتُ أتمرّن على الابتسامات، وإلقاء التحيات مهما كنت مشغولًا، عليَّ أن أكون هادئًا جدّاً.

ساحر الكتب

أدرتُ سيارتي بعدما وضعتُ الكيس البلاستيكي المعهود، وثمرة المانجو، ثم اتجهت إلى المعادي.

قصر كامل باشا بهلوي، ويا له من قصر.

الكثير من الحرس، يُؤمِّنون كل شيء، ولكن بالطبع أنا بك، أدخل بسيارتي من البوابة بعدما أشير ببطاقة تعريفي الخضراء ذات الثلاث نجوم، وهي بطاقة تعريف ملكية للشخصيات العامة.

عنصرية وطبقية في كل شيء حتى في بطاقات التعريف.

ما إن أشرت بها حتى فتحوا لي البوابة لأدخل.

لاحظتُ أن هذه المرّة أنه لا توجد الكثير من السيارات فيبدو أنه حفل صغير فعلًا، عدد المدعوين قليل وهذا سيصعّب المهمة.

لم أكن أعلم سبب الدعوة من الأساس، كل ما يهمني هو طريقة الانتقام.

درت بسيارتي قليلًا حتى صرت في ظهر القصر، البوابة الخلفية، المكان المناسب وهو مكان ليس مؤمنًا بالكامل.

ألقيتُ الكيس البلاستيكي كالعادة، وركنت سيارتي، وهممت بالدخول.

كان قصرًا كبيرًا جدًا، في حجم القصر الملكي بوسط المدينة، تعلوه قبّة أسطوانية الشكل، مزيّن بالتماثيل اليونانية وبعض الأعمدة الرخامية على الطراز الأوروبي، قصر فخم جدًا.

هناك بعض قطع الآثار المنتشرة في كل جانب، لوحة ضخمة تمثّل الواح جلجامش، وبعض الحلي والستائر الفارسية وبعض المفروشات المطعّمة بالذهب، ثم مجسّم ضخم لكسري ملك فارس، يبدو أن هذا الرجل يشعر بالحنين إلى وطنه الأم.

لوحات كبيرة لبعض ملوك فارس الصفويين، تمثال كبير جدًا كورش ملك فارس القديم، ولوحة كبيرة كتب عليها "طهران" تصور شكل المدينة حيث تتوسطها مياه قزوين، ثم لوحة أخرى لرجل يرتدي قفطان وعمامة خضراء، هذا هو الشاة إذًا.

موسيقى فارسية تنتشر في الأجواء، موسيقى شرقية جدًا، ولكن أصوات الغناء لفتيات بلغة فارسية غريبة، وهو جو عام من الغرابة.

دخلت وكان الحضور قليلًا جدًا لا يتعدّى الثمانية أشخاص، وكانت بعض الأنوار المبهجّة تزين المكان،

أجواء تشبه الأجواء الرمضانية الفاطمية، بل هي أجواء فاطمية بالفعل.

رآني كامل باشا فبش وجهه لرؤيتي، فبادلته الابتسامات، كان يرتدي جلبابًا أخضر وعمامة خضراء، وكان المدعوين كذلك.

ثم إنه اتجه إليَّ وهو يبتسم.

قال:

- العيد يبدأ بحضور الملائكة سيدي البك، إنه لشرف لي أن تتواضع بزيارتي يا ذا المقام الكريم.

ضحكت وقلت:

- بل إنه لشرف لي أن أكون في حضرة أمير فارس يا فخامة الأمير سيدي.

تبادلنا الضحكات،ثم قادني إلى حيث المشروبات، وكان المشروب غريبًا فعلًا، شيء يشبه السمن.

قلت له:

- سمو الأمير، اسمح لي.

قال:

– تفضّل.

قلت:

– لقد دعوّتني إلى الحفل، ولم تقل لي الا الآن.. ما المناسبة؟ هل هو عيد فارسي ما؟

ضحك في وقار، ثم قال:

– الآن ستعرف، فقط دعني أعرّفك إلى أخي.

اتجهنا صوب رجل آخر وسيم كعهد أخيه، أمير آخر.

قلت:

– أنا في حوذة أميرين، يا له من شرف.

ضحكوا ثم قالوا:

– بل الشرف لنا، لطالما سمعنا عنك يا بك، أنت مَثَل يحتذي به.

ثم أخرج هاتفه وقال:

– من لم يسمع عن مالك هذه الهواتف كلها يا بك؟

ضحكت بدوري، ثم لفتت نظري لوحة مرسومة بالزيت لرجل يرتدي زيًّا عسكريًّا مليئًا بالنياشين.

سألتهم:

– والداكما؟

قال كامل بك:

– هاها لا، هذا جدّنا محمد رضا بهلوي، حاكم إيران قبل الأخير.

قلت:

– يشبهكما كثيراً.

قال الأمير حسين رضا بهلوي:

– بالطبع سيدي، الشبه الكبير بيننا وبينه وسام فخر سيدي.

قلت:

– ما زلت لم أوقن إلى الآن يا باشاوات، ما المناسبة التي تستدعي ارتداء القفطان الأخضر.

قال:

– عندما تأتي صاحبة السمو من الأعلى ستعرف.

مرّت لحظات أشعلت فيها سيجارتي,ونظرت إلى ساعتي لأحتسب الوقت المناسب للتنفيذ وكان الوقت مناسبًا جدًا.. ثم قد ما لا يمكن ان أتوقعه.

أطفئ النور ما عدا بعض الشمعات، وظهرت كعكة من مكان ما، كعكة ضخمة جدًا عليها صورة طفل وأمه اقتداء بصور العذراء مريم،

ولكن هذا الوجه الملائكي، أنا أعرف هذا الوجه.

خفضت أصوات الموسيقى ثم قال كامل بك:

– نحن اجتمعنا هنا يا باشاوات من أجل الاحتفال بآخر ولي عهد آتٍ من جنة اللّه إلى أرضنا المصون، ابن ابنة اخي آخر شاه وأصغرهم عمرًا، رضوان الصغير.

ثم إنهم قالوا شيئًا بالفارسية، يبدو أنها من عاداتهم المتوارثة حين يأتي مولود جديد، شيء مثل السبوع في مصر حين يضعون المولود على الأرض ويجعلون والدته تمر من فوقه بضع مرات، عادات وغرائب.

قال كامل بك:

– فلنبارك المولود الصغير.

ثم على الدرج حضرت فتاة بيضاء الوجه ترتدي زيًا مكونًا من القماش الأبيض والأخضر وتغطي شعرها، لم أتبين ملامحها جيداً، ولكنها بدت لي مألوفة، أو ربما شعر قلبي بها.

اقتربت ثم على ضوء الشموع ظهر وجهها.

تحولت ابتسامتي إلى الدهشة، اختفت ابتسامتي رويداً رويداً، لم أشعر بنفسي وأنا أراها هنا، هنا بالذات.

يبدو أنها هلاوس فقط، بالطبع هي هلاوس، أنا فقط أشتاق إليها؛ لذا أراها في وجه الفتاة هذه.

ولكن لا، هي أيضًا قد رآتني فتغيرت ملامحها، تراني وتتعرف إليّ أيضًا.

صمتنا ننظر إلى بعضنا البعض بشكل ملحوظ, ولكن كيف؟

قلت بصوت غير مسموع:

– شاهندة؟

ارتعشت شفتاي وأنا غير مدرك ماذا يدور حولي، أنها بالفعل هي،

قال كامل باشا:

- شاهندة ابنة أخي وابنها رضوان، كنا نتمنى لو حضر زوجها، ولكن ظروف عمله تمنعه من الحضور.

خفض الصوت بداخل أذني، وكأن غشاء قد تكوّن بداخله ليمنع الصوت من التردد والاستفهام.

خفضت الأضواء فاختفى الجميع ما عدا إياها وإياي.

أراها وتراني، ولكن ما هذا الطفل الذي تحمله؟ يقولون إنه ابنها، كيف؟ كيف يكون ابنها؟

لحظة تلو اللحظة تتكون الإجابة وتتضخّم بداخلي، انقلبت الدهشة إلى الصدمة، هي أيضًا يبدو أنها شعرت بالخجل فصمتت، ثم إنها حاولت ألا تنظر إلى وجهي.

الصدمة تحوّلت إلى الحزن المبالغ فيه، قلبي يحترق بداخلي، هي تزوجت، هي تزوجت وأنجبت وأنا ما زلت أفكّر فيها.

خانتني، خانت كل شيء، لقد تزوجت فقط هكذا، وكأنني وهم، طيف، لا شيء.

لم أدرِ بشيء إلا أنني أريد أن أنتهي سريعًا وأرحل، بصوت متحشرج والاحتفال قائم، طلبت المغادرة لأمر مهم.

تعالت بعض الأصوات تمنعني من المغادرة وأن عليَّ أن أكمل الحفل، ولكني تجاهلت كل شيء.

ثم ودّعتهم سريعًا وخرجتُ، خرجت لأشتم نسائم الهواء البارد وبعض قطرات المطر البارد تغطّي وجهي.

لم أكن أدري أهي الأمطار أم دموعي هي التي تغطّي وجهي؟ لم أكن أبكي قط، فقط أفلتت مني بعض الدمعات.

اتجهتُ إلى خلف القصر في المكان المخصص للانتقام، ثم تواريت خلفه ولم أكترث حتى للنظر من خلفي، لا أكترث إذا كُشف أمري وقبضوا عليَّ، ارتديتُ ملابسي الأخرى سريعًا، ثم أخرجتُ هاتفي الذي كنتُ قد أبدلت رقمه صباحًا.

ثم اتصلت بكامل بك وطلبت منه الحضور خلف القصر للأهمية،

قال:

– هل هناك أمر ما؟

قلت:

– نعم، شيء مهم، سيدي الباشا.

كان صوتي متحشرجًا ومقلقًا فعلًا، الأمر الذي دعا الباشا للقلق فعلًا، فأنهى المكالمة سريعًا ليخرج ويرى ماذا هنالك.

استعددتُ بالنصل، وكان هو يقترب، ولكن ليس وحده.. كان بصحبة أخيه.

توترتُ، لم يكن هذا في الحسبان، لم يكن في الحسبان قط, ولكن دفعة الأدرينالين وما تعرّضت له بالداخل قد شلّ تفكيري، وقررت أن أقتلهما معًا، وهو أمر صعب فعلًا، ولكن ليس صعبًا جدًّا، هما كهلان وأنا شابٌّ.

اقتربا من النقطة التي كنت أتوارى فيها، لم أكن قد ارتديت القناع ولم أكترث لهذا، فليعرفا وجهي إذًا.

قالا لبعضهما البعض:

– أين البك؟

ظهرت فجأة أمامهما، وأنا أرتدي الزي الأسود، وأنا أنظر لهما بغضب عارمٍ، لا أدري هل هو غضب مما حدث بالماضي أم بسبب الخيانة، أم بسبب شاهندة؟

قلت:

- احفظا هذا الوجه الذي حاولتما قتله منذ أعوام، لأنكما ستريانه قريبًا في الجحيم.

ثم رفعت النصل وغرزته في عين كامل باشا الذي صرخ مليّا، وهذا دفع حسين باشا أخوه بأن يخرج طبنجة ميري تخصّه ويعمّرها سريعًا، ثم حاول ضرب طلقة لم تصبني، فأخرجت النصل سريعًا من عين كامل باشا اليسرى وغرزتها في عين حسين باشا اليسرى أيضًا.

سقطا على الأرض، فمددتُ النصل في رقبة حسين باشا لتنفجر نافورة الدماء.

ثم أخرجتُ النصل، واتجهت إلى جسد كامل باشا الممدد وهو يتأوّه ولا يرى شيئًا إثر إصابة عينه، ثم رفعت رأسه وأنا أمسك بشعره وصرختُ.

سمعت صرخة أنثوية خلفي، وصوت حفظته جيداً يقول:

– أرجوك يا شاكر، أرجوك لا تفعل.

نظرت خلفي، فإذ بها شاهندة.

التفتُّ وأنا أدور برقبة كامل باشا وأنا أنظر لها بحزن وغضب، نظرة استغراب على صدمة على كسرت قلبي.

قلت:

– أنتِ خائنة يا شاهندة، وهذان خائنان، كلّكم قتلة ظالمون، جميعكم خائنون.

ثم صرخت بكل قوتي، وجززت عنق كامل باشا أمام عينيها.

كانت هي تبكي، تبكي بندم وصدمة أيضًا، عيناها كانت تقولان الكثير ولكني لم أكترث.

أخرجت ثمرتي المانجو ووضعتهما على صدري الجثتين اللتين صمت صوتهما للأبد بعدما نزعت الملابس والنصل وألقيتها بجوارهما، ثم نظرت نظرة أخيرة إلى شاهندة التي كانت ترتعش من الخوف.

وأدرتُ ظهري لها وأنا أسير خارجًا حزينًا.. ثم فجأة، سمعت صوت طلقة قريبة، وحرق في كتفي

اليمين، توقفت، ووضعت يدي على كتفي لأشعر بشيء لزج، إنها دماء، نظرتُ خلفي غير مصدّق لما أرى، إنها شاهندة مشهّرة طبنجة عمّها إليَّ.

* * *

١٣

قال القائم مقام:

– إذاً شاهندة هذه التي كنت تحبّها، قد حاولت قتلك؟

قلت:

– نعم، يا للسخرية!

قال القائم مقام:

– هذا هو الحب يا بني، تأمن لهم فيقتلونك، كلنا هذا الشخص.

بكيت قليلًا.

فقال القائم مقام:

– أنت تشعر وتحسّ مثلنا إذاً، يا إلهي! اهدأ يا بك.

هدأت قليلًا وقلت:

– أنا بخير، بخير.

أكملت:

– حين التفتّ، وجدتها وقد ارتسم على وجهها أقسى ملامح الأسى، والرعب أيضًا.

قالت:

– قِفْ عندك يا قاتل.

قلت:

– لماذا يا شاهندة؟ لقد أحببتُك كثيرًا.

قالت:

– أنت قاتل، أنت قتلت عميَّ أمام عيني، ولن أتركك ترحل.

اقتربت منها وأنا أتماسك، قلت:

– شاهندة، لماذا؟

قالت صارخة:

– إذا اقتربت أكثر سأقتلك، سأقتلك.

قلت بهدوء:

– شاهندة، هؤلاء قتلوا أمي وأنت تعلمين ذلك، والآن أنتِ تحاولين قتلي؟

قالت بهستيرية:

– سأقتلك يا شاكر، أنت قتلت عمي يا شاكر.

ثم بكت واهتزت الطبنجة في يدها، فاقتربت وأنا رافع يدي في استسلام، اقتربت حتى صارت فوهة الطبنجة في صدري.

قلت:

– اقتليني يا شاهندة، على الأقل أُقتل على يدِ من أحببتُ.

صمتت واهتزت فأضفت:

– تزوجتِ يا شاهندة؟ أنتِ خُنتي كل مواثيقنا، كل عهودنا معًا، لقد وعدتِني.

اقتربت أكثر وكانت هي ترجع إلى الخلف وتبكي.

قلت:

– خائنة يا شاهندة، خائنة.

قالت بين البكاء:

– أنت غبي، غبي يا شاكر، لقد أجبروني على هذه الزيجة، أتظن أنني أريد أن أتزوج وأنجب من غيرك؟ أتظن أنني ساقطة إلى هذا الحد؟

ثم سقطت منها الطبنجة وظلّت تبكي.

حظي الحسن أن صوت الموسيقى كان صاخبًا بالداخل، وأن الحرس لم يكونوا في الأجواء هذه الليلة، لهذا لم يسمع أحد صوت ضرب النار.

قلت:

– لقد خنتني يا شاهندة، كل الحب بداخلي قد قُتل مع هذه الطلقة، مع هذا الطفل، في هذا الحفل.

كانت تبكي بحرقة وقالت:

– وماذا كان عليَّ أن أفعل؟ لقد حاولت الانتحار وأنقذوني، حاولت الهرب وأتوا بي، حاولت أن أحادثك فأخذوا مني هاتفي، ماذا كان عليَّ أن أفعل؟

نظرتُ لها طويلًا، طويلًا جدًّا، ثم إنني تركتُها وذهبت، لم أجد ردًّا في مثل هذا الموقف قط، هل

هي خائنة أم بريئة؟ هل تتلاعب بي؟ لقد حاولت قتلي، يا رباه.

أخذت سيارتي ورحلت، ما إن وصلت إلى منزلي حتى انهرت بالبكاء.. بكاء ونحيب، على كل شيء.. على الحب الذي انتهى في أحضان رجل آخر، في أمي التي لم أودعها أبدًا، في المعلّم إسلام الذي توفي بكل إهانة، في مشاهد الاغتصاب والسرقة والاستعباد التي أراها كل يوم في كل حي، في الاستهانة بالفقراء والصعاليك، في الظلم والسرقات والرشاوى، في كل شيء.

ظللت أبكي حتى غلبني النوم، فنمت.

في هذه الليلة الظلماء شاهدت في منامي أُمي الغالية، كان حلمًا غريبا جدًّا، فقد كانت تنظر لي وتبتسم فقط، تربت على وتبتسم.

كنت أحاول أن أُحادثها فتبتسم فقط، هذا كل شيء.

استيقظتُ وقد أصابني الهبوط من كثرة النزف، إرهاق تام، أخرجتُ هاتفي وطلبت طبيبي الخاص.

كان صديقًا لي وطلبت منه أن يُداويني في صمتٍ، لا أريدُ أن يعلم أحد بما حدث لي.

وعندما سألني عن سبب الإصابة قلت له إنها إصابة بالخطأ جرّاء العبث في طبنجتي الخاصة، وأنها ستكون إهانة إذا ما عرف أحد ما أنني أصبتُ نفسي.

اقتنع، ووافق على مداواتي في منزلي خاصة أنها إصابة سطحية.

مرّت الأيام، وكانت أسوأ أيام العام.

تطورت الأحداث جدًّا في هذه الآونة الأخيرة.

بالطبع اكتشف المدعوون عند رحيلهم أن أصحاب القصر قتلوا بالخارج، ثم أتت الدوريات والحرس، وعربات الإسعاف والصحافة وكل شيء.

ثم انتشر الخبر سريعًا جدًّا.

عناوين الأخبار في كل صحيفة وكل مدونة على الإنترنت كانت عبارة عن "ثمرة مانجو تضرب من جديد"، سفّاح يجتاح أرجاء المحروسة، سفاح متسلسل يضرب الباشاوات في بيوتهم.

انتشر الخبر بسرعة البرق، جميع الصحف العربية والعالمية تحدّثت عن هذه الحادثة خاصة انها المرّة الثالثة وأنهما اثنان دفعة واحدة، وابتدأ التحقيق.

هذه المرة كان الحظر شديداً جدّاً، فرض حظر التجوال في أنحاء المملكة، منع عامة الشعب من السير في شوارع الباشاوات بتاتًا، الحرس في كل مكان، حوادث الخطف، البرلمان يتحدّث عن السفّاح، وفشل الأمن في كشف هويته إلى الآن.

تحقيقات طالت بعض الباشاوات بل طالتني بما إنني كنت مدعوّاً إلى الحفلين، بالطبع كنت شاهداً، ولم أكن مُشتبهًا بي، وكان الأمر ساخراً بالفعل، لم يشك فيَّ أحد قط، أنا ملياردير وبك، لماذا سأفعل مثل هذه الأفعال.

بل إنني كنت مهدداً أكثر منهم لهذا فرضوا عليَّ الحرس لتأميني، كنتُ أضحكُ وأبكي، أضحك لسخرية الأمر وأبكي على حبِّ حياتي الذي انتهى.

حاولت شاهندة الاتصال بي مراراً ولم أُجبْ، يبدو أنها على حق، عليَّ الابتعاد عنها كثيراً، لا أريد أن أفسد حياتها أكثر من ذلك.

تطوّر الأمر حين لم يستطيعوا كشف الجاني، فأعلن الأغنياء عن مكافأة مالية كبيرة لمن يدلي بمعلومات تفيد التحقيق، مكافأة مالية قدرها مليون جنيه، وهو رقم مهول جدّاً، مرعب جدّاً.

حتى إن بعض الصعاليك قد اعترفوا بأنهم هم ثمرة المانجو ليتحصّلوا على هذه المكافأة بلا جدوى.

ما لم أتوقع حدوثه هو الشهرة.

فجأة بدأ الشباب في تدوين بعض المقالات على الإنترنت الذي كان محظوراً على العوام والذي نجح الفقراء في الدخول عليه بالرغم من الحظر.

مقالات تتحدث عن البطل الذي ينتقم للفقراء، البطل الذي يقتل في الظالمين، ثمرة المانجو الملاك الحارس الذي بعثه اللّه للانتقام من جبروتهم.

انتشر بين الأرجاء أنه بطل مغوار ينتقم من الظلمة، وأحبّه الكل.

في خطوة جريئة من الحكومة، حظروا بيع المانجو إلى عامة الشعب، وأسموها "الفاكهة الممنوعة"، ويسجن كل من يحاول ابتياعها أو أكلها أو تذوقها.

ثم في خطوة جريئة أخرى، حظروا الهاتف الجوال والإنترنت، ثم مع مرور الوقت وإطلاق الحرس في كل أرجاء البلاد، ابتدعوا قانوناً يبيح لهم قطع

الكهرباء من الخامسة مساء وحتى السادسة صباحًا، لا أدري لِمَ، ربما نوع من العقاب حتى يخرج القاتل من ثنيات البشر، وربما ليسهل عليهم مراقبة المشتبه بهم، لا أدري حقًا.

ثم ظهرت حركة شبابية مناهضة لثمرة المانجو، وأخذوا من ثمرة المانجو شعارًا لهم.

ثم انتشرت البوسترات والجرافيتي ليصوّر لهم ثمار المانجو في كل مكان.

صار الشعب أجمعه ثمار مانجو، أفلام ظهرت لتصوّر ماهية البطل، إعلام في ميدان المملكة عليها ثمار مانجو، صار رمزًا للمقاومة.

كان الأمر جنونيًا فعلًا، أنا لم أكن أسعى لكل هذا، لا أريد أن أكون بطلًا، أريد فقط الانتقام.

أما الحرس فقد عاثوا فسادًا في أرجاء المملكة، العسكر الألباني أو البلطجية الخواجات كما أسموهم عوام الشعب.

صار من الطبيعي أن نرى عصاباتهم تهجم على منزل ما لتقتل كل من فيه، أو تخطف أي شخص يعبر في الشارع.

اختفى الملك تماما من الصورة وعمّت الفوضى في كل مكان، فتوات الحارات كانوا في مناوشات دائمة مع الحرس.

البصّاصون في كل مكان، حتى إن الملك قد أطلق بعض أفراد الجيش للانضمام في البحث عن ثمرة المانجو هذا.

أما عن الإعلام، فحدّث ولا حرج، الإعلاميون المنافقون قد أسموها "مؤامرة"، مؤامرة خارجية، دعوة للاحتلال البريطاني ثانية، دعوة لمنظمات اليهود بإقامة وطن لهم في المملكة المصرية.

انتشرت التحذيرات في كل مكان، والحرس ابتدعوا عصى كهربائية لكل من تسول له نفسه بالاعتراض، عصا مؤلمة فعلًا.

وعمّت الفوضى أكثر.

ثم كان عام ٢٠١٤، في ذلك العام كان الفساد قد بلغ أوجُّه، حوادث الخطف تزداد، كراهية الشعب للنظام تزداد، الكل صار يرتدي قناعًا أبيض وصورة المانجو، وجُنّ النظام.

استعبدوهم أكثر وأكثر، منعوا عنهم كل شيء، الدواء والخبز والعمل وحتى المياه، أرادوا إلهاءهم

عن التفكير، فهم إذا شبعوا تمردوا.

لم يكونون يريدون أن يتفشّى الأمر بينهم أكثر فيثورون، فهم إذا ثاروا فقد انتهى النظام، وانتهت أعمالهم وأموالهم.

سار كل شيء من المحظورات، وكبرت فكرة ثمرة المانجو كثيراً.

حتى إن يوم ٢٣ يوليو الذي كانت الدولة تحتفل فيه بعيد الانقلاب الفاشل، صار الشعب يحتفل فيه بعيد ظهور الملاك المسمّى "ثمرة مانجو".

أسموه عيد المانجو، وكان الفتوات في الحارات يوزعون المانجو على الكل بمناسبة هذا العيد، ثم ابتدعوا الأغاني لامتداحهم.

كنت في مكانة الأولياء لديهم، وقد بنوا مقاماً وقبّة صخرية خضراء في السيدة نفيسة وأطلقوا عليه "مولد سيدي ثمرة مانجو".

وأُطلقت الحكايات الأسطورية عليَّ، وأنا لم أكن على دراية كافية بهذا، كنت منقذهم، بطلهم، واليهم، إمامهم.

كانوا يدعون لي على المنابر والصلوات، يرفعون صور المانجو في كل مكان، أسماء المحال، لافتات، بضائع، حتى أنواع البلح في شهر رمضان، تفاقم الأمر كثيرًا، أكثر من المعتاد، ثم شعرت بواجبي نحوهم، أنا بالفعل الأمل الذي انتظروه كثيرًا، النبوءة التي تداولوها بينهم، المهدي المنتظر، ولكن بشكل محلي، البطل الخارق الذي ينتقم لهم.

توقفت عن القتل عامين كنت فيهم قد أُصبت بالاكتئاب، ابتعدت عن كل شيء، حتى الحفلات، والعمل كنت أباشره في الخفاء، لم أكن اذهب إلى شركاتي كثيرًا.

في يوم من أيام عام ٢٠١٤، كنت حزينًا جدًا وقد ازداد حزني وقررت أن أُسير قليلًا في الطرقات.

وضعتُ طربوشي وارتديت ملابسي، وترجّلت في الشوارع، هربت من الحرس الذين يُراقبونني أينما ذهبت لتأميني، أمرتهم بالابتعاد ثم هربت منهم.

سرتُ كثيرًا جدًا بلا أي هدف، أنا بك بالطبع والحظر لا ينطبق عليَّ.

سرتُ وسرتُ بلا أي أمل أو هدف، رأيت النيل ورأيت الإهانة التي يتعرّض لها الكل، صور المانجو في كل

شبر من أراضي القاهرة، التحذيرات، البصّاصين، الشوارع التي كانت يومًا ما مزدحمة سارت مهجورة، ثم أكملت المسير.

فقادتني قدماي إلى حي السيدة زينب، كنت أريدُ أن أرى المقام الذي بنوه على شرفي.

ذهبت، وكانت الأنوار والزينة في كل مكان، ما إن دخلت الحي حتى ابتهجت.

أناس يتعبّدون، ويدورون، ومنشد يغنّي في مدحي.

كان يقول:

إلهي يا من خلقت الأرض والكون، في حضرة سيدنا ثمرة مانجو نكون إلهي يا خالق الكل عبدناك يا اللّه، وفي كرامات الأولياء أرواحنا تصون.

طلبت علاجي وما وجدت غير، حضن سيدنا ثمرة مانجو موجود.

لجأت لأوليائك يا رب وسجدت، ولبيك يا ثمرة مانجو نجود.

على أصوات الدفوف والناي الحزين، كان الكل يذكرون اللّه، يطوفون حول المقام، وكذا فعلتُ.

حين طفت وراءهم وذكرت اللّه، أدركت كم المسئولية التي أنا بصددها، كنتُ أبكي حتى ظل الناس أنني ألجأ لثمرة مانجو كما يفعلون، فمنهم من أعطاني رغيفًا من اللحم، وهو شيء نادر جدّا، وهناك من وهبني ثمرة مانجو كبيرة من بركة المكان وحضرته، كان الكل يصرخ باكيًا، وحلقات الذكر والبخور.

إنه مولد بالفعل، مولد يومي، مستمر إلى الأبد.

كانت ليلة فارقة جدّا عليّ، بسببها أدركت معنى بقائي إلى الآن، أنا لم أخلق للحب بل خلقت لأرد لهؤلاء الناس كرامتهم.

هؤلاء لهم حقوق عند الملك والحاشية يخافون أن يطالبوا بها، وهذا سيكون واجبي نحوهم من الآن.

عدتُ إلى داري،وأنا أقسم بإكمال ما كنت قد بدأته منذ صغري،

قتل الباشاوات.

مرّ شهر، كنت قد استعدتُ عافيتي، والأمل الذي كان في عيون الناس.

وقررتُ أن أكمل.

كانت أوّل خطوة لي أن أبعد الشبهات عني، وأن أتعرّض لما كانوا يتعرّضون له من قبلي.

فدعوت بعض الباشاوات من معارفي إلى حفل أنظّمة أنا في بيتي، على أن تكون حادثة القتل عندي أنا، حينها يظنون أنني ضحية مثلهم.

وبالفعل، نظّمت الحفل، وكان حفلًا صخبًا.

لم أكن أترصّد لباشا بعينه، من سيتصادف وجوده في حديقتي في ذلك الوقت سأقتله بلا شفقة.

بدأت الحفل واستقبلت الناس ومرّت ساعات ثم انسحبتُ إلى الحديقة في انتظار الضحية التالية.

ظهر "جميل باشا سعيد" نائب نظارة الزراعة وقد كان وجنا سكيرًا، وبصحبته سيدة من المدعوين الذين درستهم كثيرًا حتى أستطيع التخطيط لقتلهم، هذه السيدة هي زوجة صديقة الباشا، ويبدو أنهم تواعدوا في الحديقة ليتبادلوا التقبيل والمداعبة.

بدؤوا بالفعل في المداعبات، ثم انتظرت قليلًا وأنا أضحك، فلندعهم يمرحون قليلًا قبل قتلهم.

ثم فجأة وبدون سابق إنذار، ظهرت لهم بملابسي التنكّرية قفزًا، وكما هو الحال المعهود، الكثير من الصراخ، طعنة في العيون اليسرى ثم إلى جزّ الرقاب، والكثير من الدماء.

لم أشعر قط بالذنب، دائمًا ما كنت أستشعر متعة داخلية، شيء في كل الدماء والعيون المفقوءة والرقاب المذبوحة يشعرك بالقوة، شيء من الإثارة، سادية غريبة أصابتني، صار القتل محببًا، علاجًا للنفس، مهدئًا أقوى من المخدّر.

هنا انتهيت وتركت الملابس كالعادة، ثم صرخت، صرخت كثيرًا بافتعال ثم إنني ركضت إلى الداخل.

افتعلتُ الدهشة واكتشافي للجثث وأن هناك من كان يهرب ولم ألحقُ به.

صرخاتٌ من كل جانب، الكل يهرب، الكل ينقذ نفسه، ثم أتى الحرس من الخارج، وقد كان ما كان.

عاما تلو العام، أيام وأسابيع وأشهر يمرون مرور نسمة الصيف.

في العامين الماضيين صار عدد ضحاياي قرابة الخمسين باشا.

نصف سكان المملكة كانوا في السجون، والنصف الآخر مُتوفَّى، مستعبد، مغلوب على أمره.

بعض الباشاوات قد قرروا إذ فجأة الفرار خارج المملكة، يصفّون حساباتهم في البنوك أموالهم وقصورهم ويهربون.

خرجت الأمور تمامًا عن السيطرة، حظر التجوال صار أمرًا بديهيًا، سرمديًا للعامة، غضب عارم اجتاح الكل.

أمّا عن رعب الباشاوات والبكوات فحدّث ولا حرج، سافرَ مَن سافر وهاجر من هاجر، أما مَن بقيَ فقد امتنعوا امتناعًا تامًا عن الحفلات، صارت القصور خاوية، الحرس في كل مكان، البصّاصون، جواسيس في كل ركن، في كل زقاق، في كل دكّان.

حياة أشبهُ بالجحيم كان يعيشونها هؤلاء، الكثير من عمليات التهجير، ظلام، برد، فقر، استعباد وسخرة.

أيام أشبه بأيام الدينونة، الكل مترقّب للحادثة القادمة، حين تعلن شبكات الأخبار عن حادثة جديدة يُهلل الكل فرحًا، متابعة الأخبار صارت دربًا من التشويق للعوام.

يعلن الخبر فتمرّ من أمام مقهى لتسمع التهليل و"ينصر دينك يا ثمرة مانجو"، ويحتضن البعضُ البعضَ الآخر.

فاض بالكل، وكأن المملكة كانت تستعد الى ثورة عارمة، ثورة الجياع أو العبيد كما حذّر منها الباشاوات.

في العام البائد، في صيف عام ٢٠١٥ تحديداً، كنت قد ضقت ذرعا بالانتقام خاصة أنه لم يعد من السهل التنفيذ، حيث أصدر القصر بيانًا تحذيريًا للكل، باشاوات وصعاليك، بحظر الحفلات، ومنع الخدم من الولوج إلى داخل القصور والأحياء الراقية تمامًا.

صارت المكافأة للكشف عن القاتل عشرة ملايين جنية مصريًا وهي تساوي ميزانية دولة صغيرة، رقم مهول جدًا، تتكفّل به المملكة لمن يدلي بمعلومات عن ثمرة مانجو.

ما أثار الريبة أنه لا أحد تكلّم، لا أحد يعلم ماهيته، ولكن في نفس ذات الوقت لم يدلِ أحد بأي شيء، ولا حتى مجرد الشكوك، وهو ما أثار استغراب قوات الشرطة والباشاوات.

بالنسبة لي أنا، فقد قررت أن أنفّذ عملية قتل أخرى، ولكن هذه المرّة ستكون صعبة جداً.

حيث إنه لا توجد حفلات، ولا تجمّعات، ولا أي شيء، عليَّ تنفيذها في بيت الباشا نفسه تحديداً، وهو لأمر صعب ويحتاج إلى تخطيط كبير.

بهجت باشا بهلوي.

لماذا بهجت باشا بالتحديد؟

بهجت باشا هو ابن عم شاهندة التي كانت حبيبتي يومًا، وأقرب شخص لها.

بدأ كل شيء في يوم من أيام الصيف الحارقة، حيث كانت الشمس حارقة فعلًا، والأجواء مرعبة جدّا حيث إنه قد مَرَّ على آخر حادثة قتل لي شهران فقط.

وكنت وقتها قد قررتُ أن أهدأ قليلًا حتى لا ينكشف أمري، بل إنني فكّرت إن أتوقف نهائيّا ويكفي ما سببت من متاعب.

وكنت في مكتبي بشركتي شارداً أفكّر في بعض ذكرياتي مع السير في لندن، ومع شاهندة التي ضربتني بالطبنجة، شادرًا كعادتي.

أفقتُ من شرودي على طرقات على باب مكتبي، فإذ به مدير مكتبي الإيطالي يستأذن في الدخول.

أذنت له فأخبرني بأن هناك من يريد مقابلتي وأعطاني كارت التعريف الخاص به.

قرأت الاسم، بهجت بهلوي،فاندهشتُ، أذنت له بالدخول لمقابلتي وقد وضعت طربوشي على عجل.

دخل فرحّبت به، شابّا، وليس كهلًا كان، يشبه شاهندة كثيرًا.

قال:

– لطالما أردتُ مقابلتك يا بك، وهأنا قد أتيتُ، اعتذاراتي لأنها مقابلة بدون ميعاد.

قلت مبتسمًا:

– العفو يا باشا، أنا سعيد بمقابلتك كثيرًا.

قال:

– بل أنا أسعد فخامتك،لن أطيل الأمر عليك،أريدُك في شيء ما.

قلت:

– اؤمرني يا باشا.

قال:

– أريد أن أبتاع من شركتكم هاتفًا ذكيًّا.

قلت بدهشة:

– سيدي، كل باشا لديه هاتف وأظن أنك أيضًا تحمل في يدك أحدث أنواع الهواتف.

قال ضاحكًا:

– بالفعل سيدي، ولكني أريد نوعًا خاصًّا، نوعًا أستطيع به التسجيل صوتًا وصورة بدون أن يظهر شيء على الشاشة، نوع تصنعه شركتك لي خصيصى، ولك ما تريد من أموال.

قلت:

– هل لي أن أسأل عن السبب، سيدي؟

قال:

ساحر الكتب

– ستعلم في وقتها، فقط أريده سريعًا، متى تستطيع توفير مثل هذا الهاتف؟

قلت:

– أسبوعين كأقصى تقدير.

قال:

– حسنًا يا بك، إذًا سأنتظرك أول أيام الشهر القادم في منزلي، إنه في المعادي ثالث قصر، سأكون في الانتظار يا بك.

ثم إنه ألقى التحية وأوصلته إلى الخارج ثم رحل، وتركني أتساءل كثيرًا عن ماهية الأمر، لماذا يريد مثل هذا الشيء؟ ولماذا كان مبتسماً هكذا؟

ثم تناسيت كل شيء.

مرّ الأسبوع تلو الآخر، بالفعل كنت قد انتهيتُ مع فرع الصيانة في مصنعي الملحق بالشركة على تجهيز ما طلبه حرفيّا، وقد كان،

في الميعاد تماما كنت عند باب قصره أنتظر إخطاره من قبل الحرس بأنني في الخارج.

ثم مرّت ثوان حتى سمحوا لي بالدخول.

كان التأمين والحرس منتشرين في أرجاء القصر بالخارج بشكل مبالغ فيه، وهذا ما أثار ريبتي، أو بالأصح غريزة الخطر الحيوانية بداخلي، هناك شيء غير مفهوم يحدث حولي، جوٌّ عام من الهدوء الذي يسبق العاصفة.

دخلت القصر، وقابلني بهجت باشا بترحاب، ثم قادني إلى غرفة صغيرة نوعًا ما بها طاولة عليها سكين صغير وجهاز راديو قديم، ولوحة جدارية عليها صورة رضا بهلوي الكبير، وهذا كل شيء.

قلت له:

– لماذا هذه الحجرة بالتحديد، سيدي الباشا؟

قال:

– ستعرف.

ثم أدخلني وأوصد الباب خلفه.

جلست، وكنت متوترا قليلًا، وجلس هو في مقابلي على الطاولة، وكان ينظر لي بطريقة غريبة جدًّا وعلى وجهه ابتسامته التي تُثير الريبة هذه.

قلت له وأنا أخرج له لفافة:

– الهاتف كما طلبت مني بالضبط يا باشا.

وناولته له.

أخذه وعبث فيه قليلًا، ثم قال:

– عفارم عفارم، كيف تعمل الكاميرا؟

أشرت له وقلت:

– الزرُّ الخفيُّ بالأسفل، فقط اضغط مطولًا ستعمل الكاميرا بدون أن يظهر شيء، فيسجّل ويحفظ الفيديو أوتوماتيكيًا.

قال:

– تمام تمام، ثم إنه نظر لي كثيرًا.

قام من مجلسه وقال وظهره لي:

– قل لي يا بك، ماذا تحب من الفاكهة؟

استغربت السؤال، ثم قلت:

– كل الأنواع سيدي.

قال بدون أن يلتفت لي:

– ألا تحب، المانجو؟

صمت وقد أدركت أنه يعرف شيئًا ما، لم أرد بالطبع.

قال:

– منذ شهرين يا بك، زارني شخص ما وقد وجدت معه ثمرة مانجو غريبة جدًا، وأردتُك أن تتطلع عليها.

ثم إنه حمل شيئًا في يده ووضع ثمرة مانجو على الطاولة وناولها لي.

كانت بالية جدًا، يبدو أنها موجوده منذ سنوات, وكان محفورًا عليها "شاكر ابن الباشا"، اسمي.

قلت بدهشة:

– ما هذا يا باشا؟ ولماذا كتب عليها اسمي؟

قال وقد التفت لي:

– هذه الثمرة يا بك عمرها حوالي عشرين عامًا، كانت بحوزة طفل صغير وقد أعطى الطفلُ فتاةً إياها كانت في مثل عمرة الصغير في بهو القصر الملكي.

ابتعلت ريقي بصعوبة.

قال:

– هذا الطفل، بلغ من العمر عقدين، وصار قاتلًا محترفًا، يقتل في الباشاوات بلا رحمة، الباشاوات الذين صادقوه وأحبوه وعاملوه كأخٍ لهم، بالرغم من أنه خادم حقير، ابن خادمة.

لم أرد وإن تحولت نظراتي إلى الشر.

قال وهو يقترب قليلًا:

– ذلك الطفل الذي ظنّ وهلةً أنه يستطيع أن يدنّس الباشاوات، ويحب ابنتهم، ويواعدها، بل يحلم بها.

ثم أردف:

– تحبّها، أليس كذلك يا بك؟

لم أرد، وظللتُ أنظر له، قال:

– لقد أجبرتها على حديث، وقد قالت كل شيء، ولم أقصّ عليك كيف كان من الصعب اقتصاص المعلومات من ابنة عمّي، كان الأمر شاقًا بالفعل.

قلت بغضب:

– ماذا فعلتم بها يا حثالة؟

قال:

– هدّئ من روعك، لقد انكشف أمرك يا بك، أنا أُسجّل الآن كل شيء، والحرس في كل مكان، ينتظرون الإشارة فقط.

ثم أضاف:

– أما شاهندة، فلن تراها ثانية، بل إنك قد تراها يوم حسابك، ولا اظن أنك ستراها فيما أنت ذاهب إليه.

ثم قال بهدوء:

– إلى الجحيم يا بك.

أدار ظهره إلى حيث بعض المشروبات الموضوعة بالخلف، وقال:

– سأسمح لك بمشروب واحد أخير قبل القبض عليك،ماذا تختار؟

ثم نظر لي وعبث بشاربه ثم قال:

– حقير مثلك لا يستحق إلا المياه.

ثم أدار ظهره ثانية وهو يجلس على مقعدة ليحضر كوب مياه.

عند هذه اللحظة لم أدر بنفسي، أخذتُ السكين الصغير سريعًا وبكل قوة لديَّ طعنته في ظهره.

لم يصرخ، لم يفعل أي شيء، فقط فتح فاه وسقط على الطاولة ميتًا على الفور.

كنتُ متسارع الأنفاس، أخذت نفسًا كالسيف يخترق صدري، نار محترقة فعلًا تشوي كل شيء تلمسه.

لقد انتهيت.

* * *

ساحر الكتب

النهاية

قال القائم مقام وهو يقاوم الإرهاق:

– بهجت باشا بهلوي، أنا أتذكّر هذه الحادثة، لقد اكتشفنا أن القاتل هو ابن باشا، كما كتب على ثمرة المانجو الموضوعة على الطاولة بجانب الجثّة، ولكن لم نكن ندري من شاكر هذا، فقط أسندناها إلى ثمرة مانجو كالعادة بالرغم أن أسلوب القتل مختلف قليلًا.

قلت:

– نعم بالطبع، لم يربط رجال المباحث قط بيني وبين ابن الباشا هذا، فقط ازدادتُ الاستجوابات كثيرًا، وسؤال كل من اسمه شاكر ووالده باشا، ولم يُجدِ الأمر نفعًا، فالباشاوات لديهم حصانة كما تعلم, ولكن قبلها فقط لم أكن أعرف أي شيء، وتوقعت أن يكتشف أمري بسهولة، لهذا قررتُ أنه لا عودة لي إلى قصري أبدًا، وأنني لن أخرج بشكل طبيعي أبدًا من قصر بهجت باشا، هربت كالفأر فعليًا، خرجت من الباب الخلفي، وقفزت من على السور، وحظي الحسن إن السور لم يكن بهذا العلو وإنه لا حرس هنالك.. ثم قرّرت الهرب.

لم أدرِ إلى أين أذهب، سرت كثيرًا جداًّ حتى غربت الشمس، لم أدرِ إلى أين أنا ذاهب، وإن لم أتوقف قط عن التفكير، لم أكترث إن كشف أمري، ولكني كنت بالفعل أكترثُ لشيء واحد، ألا وهو شاهندة، أريد أن أقابلها، أشرح لها كل شيء، أنا لست ذلك القاتل الدموي الذي تظنني أنه أنا، أنا أريد أن تفهم أنني أحبّها فعلًا.

مكتئبًا حزينًا شاردًا أسير، لا أدري إلى أين أنا ذاهب أو ماذا أفعل، أين أهرب، أين أظهر، خطواتي محطّمة لا مبالي بما حولي، ظللتُ أسير وأسير إلى أن قادتني قدماي إلى الحي القديم، الحي الذي ترعرعتُ فيه.

بيتي وبيت أمي، صار كومًا من القمامة، ولكني لم أهتم بما أرى.

كنتُ أسير كالمجنون العابث، أسير بلا أدنى اهتمام، لا أعرف أحدًا ولا يعرفني أحد.

لم يكن في الحي أحد مطلقًا إلا من بعض الرجال هنا وهناك.

ثم إنني سمعتُ من ينادي اسمي القديم:

– ابن الباشا، يا ابن الباشا.

لم أنظر بالطبع وظللت شارداً.

حتى شعرت بمن يمُسك بكتفي ويربّت عليه ويقول:

– افتقدتُك يا بني.

نظرتُ إلى الخلف فإذ به المعلّم البوشي، الحدّاد القصير جارنا.

لم أصدّق نفسي بأنني أراه أخيرًا، أرى شخصًا أعرفه فعلًا.

احتضنتهُ كثيرًا، وبادلني الأحضان، فلم أدرِ بنفسي إلا وأنا أبكي ثم أفقد الوعي.

أفقتُ، فإذ بي في منزل مهترئ قديم، أنام على مفرش قديم،

نظرت حولي أحاولُ التعرّف إلى المكان، فلم أتعرّف إليه مطلقًا،

ثم سمعت خطوات فأجفلت، نظرت فإذ به المعلّم البوشي يحمل بعض مرق الدجاج الساخن، ويتقدّم إليَّ على وجهه ابتسامة، كم الطمأنينة حين رأيت وجهه، شيء من استعادة الماضي الذي ألمّ بي،

افتقادي للشعور بالأمان، هذا الرجل كنت ألعب أمام دكّانة وكان هو رجل عطوف جدًا.

كان لطيف المعشر، طيب القلب فعلًا.

تقدّم إليّ وقال:

– سنوات كثيرة مرّت عليّ ولم أرَك يا بني، الحمد للّه أنك بخير.

قلت:

– أنا بخير يا عمّي، لا تدري كم كنت حزينًا وأنا لا أرى أحدًا في الحي.

قال:

– الكل قد هجر الحارة يا بني، والباقي أما متوفّون وإما معتقلون، اللهم انتقم من كل ظالم.

قلت:

– اللهم آمين.

قال:

– قُل لي يا بُني، أين كنت، وماذا أصابك يا بني؟ تبدو مهمومًا وحزينًا جدًا، هل من مكروه قد أصابك؟

لم أرد، فقال:

– بني، أنا مثل والدك، أنت تربّيت وترعرعت وسطنا،وأنت أعلم أنه لن تجد أحن عليك مني، صارحني بما في داخلك لتستريح.

صمت برهة ثم لم أدرِ بنفسي إلا وأنا أقص له كل شيء، كل شيء منذ وفاة والدتي حتى لحظة ظهوري في الحي.

كان مُندهشًا جدًا، يسمع كل شيء ويحسبن ويستغفر ربّه في اندهاش مبالغ.

انتهيت فقال:

– أنت يا شاكر؟ أنت ثمرة مانجو؟ أنت البطل؟

قلت:

– نعم إنه أنا، ولكني لستُ بطلًا، أنا مجرّد قاتل محترف.

قال:

– لا مؤاخذة يا بني، تسمح لي أن أقول شيئًا؟

قلت:

– قل يا عمّي.

قال: أنت غبي إذا ظننت أنك لست بطلًا، أنت بطل الصعاليك كلّهم يا بني،أنت لا تدري أنك رمز المقاومة، رمز الشجاعة والمجدعة، وعليك أن تكمل إلى النهاية حتى يسقط الظلم.

ثم قال:

– سِر معي أريد أن أريك شيئًا.

وافقته، ثم اتيت معه، قادني إلى حجرته بالداخل حيث الشرفة المطلّة على الحي من الخارج.

قال:

– انظر يا بني، ماذا ترى؟

نظرتُ ولم أرَ شيئًا جديدًا، قال:

– ثمرة مانجو في كل شيء، على أبواب الدكاكين والبارات، على الحوائط، على الأعلام، حتى إنه مرسوم بالدهان على سور قصر عابدين هل ترى؟

نظرت مليّا، بالفعل هو موجود في كل شيء.

قال:

– أنت يا بني بطل، أنت نصير الغلابة كما يسمونك، أنت من أتيتُ بحقٍّ كل صعلوك ومظلوم من بطون الباشاوات حتى غلب الرعب قلوبهم وهربوا، الكل يحبّك ويقدّرك، أنت قائد آخر الزمان كما أطلقنا عليك.

قلت: ولماذا كل هذا يا عمّي؟

قال: هم يريدون الانتقام أيضًا، ولكنهم جبناء، يريدون قائدًا يوجّههم، يُملي عليهم ويقودهم حتى يستطيعوا الثأر، أما الآن فهم مجموعة من الدواب التي لا خطر منها، وعليك أن تكمل طريقك يا بني.

قلت:

– ولكن كيف؟ ولماذا؟

قال:

– أنت قلت إنك ولي العهد الحقيقي، أليس كذلك؟

قلت:

– بلى.

قال:

– وأنت أيضًا قد كبرت وسطنا، أنت منا يا بني، أنت حلقة الوصل التي تربط الفقراء بالأغنياء، أنت من ينطبق عليك "المنتظر"، وعليك أن تكمل مهمتك.

فكّرت قليلًا، هو لديه حق، بالفعل عليَّ أن أكمل، القدر قد اختارني لهذه المهمة بدون أن أدري.

هذا صحيح، كل شيء يقول هذا، إنه أنا بالفعل، لا لم يكن قدري أبداً الانتقام لأمي فقط، بل الانتقام للكل، إرجاع الحقوق للكل.

ثم خطرت على بالي فكرة، أنا أريد أن أشرح لشاهندة كل شيء، وفي نفس الوقت أريد أن أكمل ما بدأته، الشعب يريد أن يعيش، هم أصحاب الأرض الأصليون وليست الطبقة الأرستقراطية فقط، ويجب ان تعود الحقوق إلى أصحابها مهما يكلّف الأمر.

طلبت من عمّ بوشي أن يوصلني إلى المقام المبني على شرفي، مقام ثمرة مانجو بالسيدة زينب.

وقد كان.

هناك، كشفت هويتي، وطلبت منهم تصديقي والتعاون معي، وكانت الخطة الأخيرة، الحادثة الأخيرة، والكبرى.

المخطط الذي عملنا عليه لأكثر من عام.

ثم صمتّ وضحكتُ كثيراً.

قال القائم مقام:

– لماذا تضحك؟ ولماذا توقفت؟

قلت:

– سأكمل، ولكن أريد منك يا جناب القائم خدمة أخيرة، وارجوك أن تُوافقني عليها، أعدُك أنها الأخيرة.

قال:

– وما هي؟

قلت:

– أُريدُك أن تحضر جلالة الملك والأمير راسخ ليشهدا على اعترافي الأخير.

قال:

– لماذا؟

قلت:

– ستعرف، فما سأقوله عليهما أن يسمعاه بنفسهما.

قال القائم مقام:

– قل الآن وسوف أخبرهم بعد ال....

قلتُ مقاطعًا:

– أرجوك، فقط اطلب إليهما المجيء.

نظر لي، ثم وافقني مضطرًّا.

دقائق وظهر جلالة الملك على عرشه وبجانبه راسخ باشا.

قال راسخ باشا موجهًا كلامه إلى القائم مقام:

– لماذا لم تحضر الدوريات إلى القصر إلى الآن يا باشا؟ ولماذا لم تقتله إلى الآن؟

قال:

– لا أعلم سيدي، قالوا إنهم سيحضرون.

قلت:

– لم يحضر أحد يا جناب صاحب السمو.

نظر لي راسخ وقال:

– وما أدراك يا تافه؟

قلت ضاحكًا:

– تتذكّر يا باشا حين قلت إنني سأنتقم منك؟

ثم أردفت:

– سأكمل وستفهم الآن.

عندما كشفت عن هويتي للصعاليك، اجتمعت مع فتوات الأحياء في أرجاء القاهرة عند المقام، واتفقنا على الانتقام معًا، وفي ظهورنا جموع الشعب.

ضحك راسخ وقال:

– تافه يقود تافهين.

ثم قال جلالة الملك:

– أي انتقام تقصد يا بك؟ أنا لم أوذِك بشيء.

قلت:

– بالفعل أنت يا جلالة الملك لم تُؤذني أو تُؤذي أحداً بنفسك، ولكن صمتك نحو رعيتك، وتسليمك الأمر إلى رجالك هو خطؤك الأعظم، هم من استباحونا وأنت حتى لم تهتم.

قال جلالة الملك:

– أنت قاتل يا شاكر بك وباعترافك، ليس لك الحق في قول أي شيء إلا الاعترافات فقط، ولن أعفُ عنك.

قلت:

– لن أطلبُ العفو، فأنا ميت شئت أم أبيت، وهذا جزء من الخطّة الأخيرة.

قال القائم مقام:

– أي خطة أخيرة؟

قلت: ألم تتساءلوا:

– لماذا كشفت نفسي أمام الكاميرات؟ هل أنا بهذا الغباء؟

أصوات الهمهمات تتعالى، أردفت:

– الخطّة التي كنا بصددها تتلخص في بعض النقاط، وهذه النقاط تحتاج إلى ذبيحة، وكنتُ أنا الذبيحة هذه.

قال راسخ بغضب:

– ماذا تقصد يا تافه؟

قلت:

– كما قلت، لم تأتِ الدوريات، ولن تأتي، أنتم هنا محبوسون جميعكم، ولن تخرجوا أبداً، الثورة بالخارج، وكل المسئولون في المملكة هنا يحتفلون.

قام جلالة الملك من مجلسه غاضبًا وقال:

– ماذا تقصد؟

قلت:

– أقصد، أنكم ستموتون الليلة، أو على أقصى تقدير ستتنحّون عن مناصبكم.

ثم ضحكت كثيراً.

البعض صرخ:

– كاذب، أنت كاذب.

قلت موجهًا كلامي إلى راسخ باشا:

– أريدُ أن أُصارحك بشيء يا جناب الباشا.

إن الخطة التي وضعناها أنا وزعماء الصعاليك والفتوات كانت تقتضي كشف أمري كما طلبتُ بالرغم من اعتراضهم على ذلك، ثم إشغالكم عما يحدث بالخارج، في حين يسيطرون هم على المناطق الحيوية في المملكة، ويقتلون الحرس بالخارج، ثم يقتحمون القصر.

كان الكل مصدومًا مما أقول، لم يتوقع أحد قط ما قلتُه.

أكملت:

– أما يا راسخ باشا ما أردت قوله، إن شاهندة التي كنت أحبُّها والتي ضحيت بنفسي لأقابلها هنا واليوم، اسمها ليس شاهندة يا باشا.

ثم قلت:

– اسمها هو شاهي الصفوي – ثم ابتسمت – زوجتُك.

قال راسخ:

– ماذا تقول يا حيوان؟ سأقتلك الآن، سأقتلكما معًا.

هنا، كانت شاهي تصرخ وتقول من الخلف:

– لماذا يا شاكر؟

قلت:

– لا أهتم فلتُقتلني، هي لم تحبّك قط، هي كانت تحبّني أنا، وأنا أحبّها، والآن هي تعرف كل شيء.

ثم نظرت لها وقلت:

– سامحيني يا شاهي، الآن فقط أنا سأموت وأنا مستريح، فلتعلمي فقط أنني لم أكن قاتلًا لأنني

أحبّ القتل، والآن سيقتلونني، وأنا أعلم أنك تعلمين كل شيء، وهذا ما يريحني.

أخرج راسخ باشا طبنجته الشخصية، ودفع من كان أمامه، ثم وجّه الفوهة إليَّ وقال:

– سأكون سعيداً بوفاتك يا خائن يا ابن الخادمة.

ثم أطلق رصاصة، لم أدرِ بشيء إلا أن أطرافي قد بردت، وخارت قواي شيئًا فشيئًا، أنا أعلم أنني أموت، ولا أكترث، فلأموت إذاً إذا ما كان موتي سيحرر الشعب أخيراً، سيفنى جسدي، ولكن الفكرة حيّة لا تموت، الفكرة نور، والنور لا يقدر على حبسه ألف جسد، وألف سور، الجسد يفنى والفكرة تبقى، الشجرة لا تطرح ثمرة مانجو واحدة، فالبذرة تدفن ليخرج منها آلاف ثمرات المانجو أكثر حيوية، نظرت نظرة أخيرة فوجدت شاهي تحتضنني في حنان تمنيته طوال حياتي، تريح رأسي على صدرها الدافئ، كانت تبكي، وكنتُ أنا أبتسم.

أما راسخ باشا فقد أمسكوا به وهو يصرخ كالمجنون ويقول شيئًا ما.

لم أقدر على السمع فروحي كانت تخرج بهدوء.

ثم رأيتُ الزجاج في القصر يتكسّر، الكل يركض ببطء أو أنني لا استوعب شيئًا، كان آخر ما رأيته هو أناس كثر يقتحمون القصر من كل جهة، والكل يصرخ ويركض، المانجو في كل مكان، في اللافتات والصور، بين الحاضرين ووسط الدماء، لن يهرب أحد من القدر مهما يطل الزمان، ستطرح الأشجار الكثير من المانجو حتى وإن زرعت في الصحراء.

غضب عارم،وهتاف جماعي يقول:

"سنعيش رغمًا عنكم، سنعيش رغمًا عنكم".

وكل شيء يتحطّم، التماثيل والصور والخوف.

سأعيش يا شاهي، سأعيش بداخلك وإن ذهب جسدي.

أرحتُ رأسي في سلام على صدر شاهي، ابتسمتُ، ثم أغمضتُ عيني، أغمضتُ عيني إلى الأبد.

* * *